من بلاغة التعبير بالموصول
فى سورة النور

دراسة تحليلية

إعداد الدكتور
محمد السيد محمد الطباخ
الأستاذ المساعد فى الكلية

المقدمة

أحمد الله – تعالى – وأصلى وأسلم على نبيه – صلوات ربى وسلامه عليه.

وبعد...،

فالقرآن الكريم معجزة الله الباقية بقاء الدهر، تلك التى تشرق لا تغرب، وإن غربت الشمس، تلمع لا تأفل وإن أفلت النجوم، فهى تبقى لا تذهب وإن ذهبت الأكوان...

من هنا كان اهتمام الدارسين فى كل عصر ومصر بالقرآن الكريم حفظاً ودراسة، وبحثاً واستنتاجاً، فللفقهاء والمشرعين فيه أهداف، ولهم إلَيْها منهج وطريق، وللغويين فيه أهداف، ولهم إليها – كذلك – شرعة ومنهاجاً، وللبيانين فيه أهداف، ولهم إليها منهج وطريق.

وعلى كثرة ما كتب حول القرآن، فإنه ما يزال جديداً، غضاً.. ندياً، فيه لكل دارس مجال، ولكل باحث مقال، فالمسند إليه محكوم عليه، والأصل فى المحكوم عليه أن يكون معيناً، إذ الحكم على المجهول لا يفيد إفادة تامة، وكمال التعيين بالتعريف، لذا جعل البلاغيون الغرض العام لإيراد المسند إليه معرفاً بأى نوع من أنواع التعريف: قصد المتكلم إفادة المخاطب الحكم إفادة تامة، فإذا لم يقصد المتكلم هذه النكتة جئ بالمسند إليه نكرة، والمقام هو المقتضى قصد هذه النكتة من عدمها. من هنا كان اختيارى لسورة من سور القرآن، هى أقرب شيئ إلى أن تكون بعثاً من جند السماء، يحمل الهدى والبصيرة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فى رحاب سورة النور وأثرها البلاغى فى التعريف بالموصولية، بغية البحث عن هذه النكتة فى مقامات سورة النور من جانب، ومن آخر: البحث عن السر فى مجئ المسند إليه معرفاً.

هذا وقد خرج البحث فى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. أما المقدمة: فقد وضحت السر فى العكوف على هذه السورة وفى هذا الموضوع دون غيره.

ثم يأتى المبحث الأول: ليظهر فى عجالة – أثر من آثار نور الله فى أرضه، وهو بعنوان (بين يدى سورة النور)، وليضع معلماً من معالم التعريف – سيما – التعريف بالموصولية، وأثره البلاغى فى توضيح المعانى.

ويأتى المبحث الثانى: ليعرض بعض أسرار التعريف بالموصولية فى دراسة تطبيقية إحصائية لكل صورها المختلفة فى رحاب تلك السورة الكريمة، وفى إطار الموصولات الخاصة.

أما الموصولات المشتركة فكان للبحث معها جولة وهو موضوع المبحث الثالث.

أما نهاية المطاف: فتبدو فى خاتمة البحث، المسفرة عما به من نتائج وأهداف، عساها أن تصل إلى واحد من آثارها.

وإذا كان من قبلنا قد أدلوا بدلوهم، فإنهم لم يسدوا الطريق، وإنما تركوها لمن بعدهم ليواصلوا السير على نفس الدرب. وحسبى أن أدلى بدلوى بين الدلاء فى أهم ما تمسكت به البشرية من نور، نور حبل الله المتين، الذى هو نور للقلوب، وغذاء للأرواح ومنهل عذب، يرد عليه كل ظمآن ويصدر عنه وهو ريان.

ويعلم الله أنى قد بذلت جهدى فما كان من نقص فمن نفسى، وما كان من توفيق... فمن الله، فمنه العون والتوفيق، وعليه التكلان... هو حسبنا ونعم الوكيل.

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

" التمهيـــــــد "

أولا: بين يدى سورة النور

دفعنـى لاختيـار هـذه السـورة أمـور منهـا: هـﷺذا البـدء الـذى بـدئت بـه، والإخبار عنها بأنها سورة – مع أنها سورة من مائة وأربع عشرة سورة، هى سور القرآن الكريم، إذ تعد تنبيهاً على أن سورة ستنزل، وفيها فرائض وأحكام... ذلك أن الأحكام الشرعية – سيما – ما يتصل منها بالحدود – لم يجئ بها القرآن الكريم فى صدر السور القرآنية، إنما جاء بها بين ثنايا الآيات، حيث يمهد لها بآيات ثم يعقب عليها بآيات.. وبهذا يجئ الحكم الشرعى وبين يديه ومن خلفه ما يدعمه، ويوضحه، فبداية السورة – كما يقول أحد المفسرين – أشبه بالموسيقى التى تتقدم موكب المجاهدين فى سبيل الله، المتجهين إلى غزو مواقع الكفر والضلال، إذ أن الآيات التى جاءت بعد هذا المطلع، هى فى الواقع أقرب شئ إلى أن تكون بعثاً من جند السماء، يحمل الهدى والنور إلى هذه المواطن المظلمة من المجتمع الإسلامى، فيبدد ظلامها، ويكشف للأبصار والبصائر الطريق المستقيم لمرضاة ربها.

ثانيا: ما يبدو واضحاً فى تسميتها باسم (سورة النور) ربما لمجيئها بآيات تكشف ظلاماً كثيفاً، كان قد انعقد فى سماء المسلمين قبل نزول هذه السورة، ومعها هذه الآيات، ذلك أن السيدة عائشة – ﵂ – كانت – فى تلك الفترة موضع اتهام على ألسنة المشركين والمنافقين، وقد أوذى رسول الله – ﷺ – من هذا الحديث المفترى، كما أوذيت زوجه – ﵂ – وأوذى المسلمون بهذا الذى طاف حول بيت النبوة من غبار تلك التهمة المفتراه – فلما نزلت الآيات التى تبرئ البريئة الصديقة بنت الصديق – ﵂ – انقشع هذا الظلام الداكن، بل وكشف النور السماوى عن وجه من وجوه النفاق والمفترين.(١)

ثالثا: المتتبع لآيات هذه السورة – يدرك عن كثب – أنها سلكت سبيل الحكمة فى تشريع الأحكام، وخلت من المرارة التى قد تنشأ فى الأذهان والقلوب،

١) التفسير القرآنى للقرآن / عبد الكريم الخطيب ١٧/١٢٠٠ بتصرف ط دار الفكر العربى

عند رد الحملات الشنيعة، واتسمت بالرزانة والتدبير المعتدل فى معالجة أقصى الظروف المثيرة للعواطف - كالتصدى لمرتكبى فاحشة الزنا، والقذف، والرمى ببهتان الإفك، والاستئذان عند دخول الأماكن غير المملوكة - إنها تشريع الحكيم العليم، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وهو يشاهد معاملات الناس وأحوالهم، دقيقها وجليلها من مقام رفيع، قال تعالى **(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)**(١).

رابعا: ذكر النور فى هذه السورة بلفظه تارة وبمظاهره أخرى، فلفظه - كما فى قوله **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** **(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**(٢).

وقد ذكرت مظاهره وآثاره فى القلوب والأرواح، ممثلة - هذه الآثار - فى بيان الفرائض والأحكام والآداب والأخلاق التى يقوم عليها بناء السورة، وهى أحكام وآداب نفسية، وعائلية وجماعية، تؤدى إلى طهارة الفرد وسلامة المجتمع وتربيته تربية إسلامية هادفة، فهى نور يضئ القلب بتقوى الله، ونور يرشد المجتمع لأسباب العفة، فهى سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردى فى الخطيئة.

خامسا: المحور الذى تدور حوله السورة هو محور التربية، التربية التى تشتد - أحيانا - وترق فى أحايين أخرى - تشتد فى وسائلها إلى درجة الحدود، وترق إلى أن تلمس الوجدان والمشاعر والعواطف الرقيقة التى تصل القلب بنور الله.

---

١) سورة المائدة / ٥٠

٢) سورة النور / ٣٥، ٤٥

لهذه الأنوار التى تملأ الوجود من نور الله، ولهذه الآيات المنزلة التى أضاءت للمسلمين ظلام الليل الكثيف، وفضحت المشركين والمنافقين.... لهذا أوذاك، أولهما معا – استحقت السورة أن تحمل هذا الأسم، وأن تكون نوراً على نور من نور الله.

هذا غيض من فيض من مجمل الدوافع الحاملة على الوقوف فى إهاب وثنايا تلك الآيات البينات.

سائلاً المولى – عز وجل – أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

المبحث الثانى
الدراسة التطبيقية

قال تعالى (**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ – إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)(١) إن حفظ اللسان وتطهيره من الكذب والزور والبهتان من أعظم أمور الشريعة رعاية وحفظاً، فعن أبى هريرة "ﷺ" عن النبى (ﷺ) قال (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم)(٢). من أجل هذا أمر الإسلام بكبت الإشاعات المغرضة، وحفظ الألسن من الولوغ فى أعراض الناس، لذا عمد إلى إيثار التعبير باسم الموصول (الذين) تقريراً لهذا الغرض المسوق له الكلام، فالتعبير باسم الموصول أدل على هذا الغرض مما لو قال: والرامين المحصنات أو القاذفين، لأن مثل هذا يقرر الغرض فقط ولا يزيده تأكيداً، بخلاف التعريف بالموصولية فإنه يزيد الغرض المسوق له الكلام تأكيداً (حفظ المجتمع من إشاعة السوء وتهوينه فى نفوس (الناس) لاشتمال الصلة (يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) على ما يفيد هذه الزيادة فى التقرير. وفى سبيل تأكيد هذا المعنى استخدم الصلة (يَرْمُونَ) وإذا كان الرمى هو القذف من: رمى بالحجر فى الماء أى قذف به، فإنه استعير – هنا لنسبة أمر مكروه غير مرضى للإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة.

وفى تصدير الحكم بالجملة الاسمية (**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ**) تقديم للمسند إليه – المبتدأ – وكشف عنه قبل الكشف عن الحكم الذى سيسند إليه، إذ ليس المقصود أولاً هو إقامة حد القذف على أصحابه، إنما المراد هو التعرف على من يحمل هذا المرض الخبيث فى كيانه، ثم يأتى بعد ذلك ما يتخذ لوقايته، ووقاية المجتمع

---

١) سورة النور / ٤–٥
٢) راوه البخارى

منه. فقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يلفت السامع إلى أن حكماً ما سيقع على القاذفين، أو قولاً سيقال فيهم... وهنا تصغى الأسماع، وتتطلع النفوس إلى هذا الحكم. وإذ يتوقع المستمعون أن هذا الحكم سيكون وعيداً من الله، أو تكملة لأوصاف هؤلاء – يجئ الأمر على غير ما ينتظرون، وإذا هم أنفسهم المطالبون بالكشف عن هذا الداء، ثم هم مطالبون – أيضاً – بأخذهم بهذا الدواء الذى وضعه الله فى أيديهم، وإنفاذ أمره فيهم ألا وهو: (فاجلدوهم ثمانين جلدة، وعدم قبول شهادتهم وردها) وهذا كله من شأنه أن يجعل المسلمين جميعاً حرباً على داء القذف. وإذا كانت النكات البلاغية لا تتزاحم فإنه يمكننا أن نقول: للتعريف بالموصولية – هنا – سر ثان يتمثل فى: استهجان التصريح بالاسم الدال على المسند إليه (القاذفين أو الرامين) دفعا لقبح التلفظ به، ودرءاً لنفور النفس من سماعه، وبياناً لشناعة هذه الجريمة والخطر العظيم الذى ينجم عنها، حتى ليكاد يصيب كل من يقترب من هذا الداء، فضلاً عن أن يكون طرفاً من أطرافها، وفى سبيل بيان هذه المعانى تعرض لذكر (المحصنات) دون المحصنين فى الآية، مع أن أصل الإحصان: المنع، لأن المرأة تبعتها فى هذه الجريمة – إذا ثبتت – أفدح من الرجل، وأشد خطراً لما يترتب عليه من فساد الأنساب، وتلطيخ فراش الرجل، وهو عار على عشيرة المرأة وألزم، فلهذا كان ذكرها دون الرجال أهم. وفى ذكر صفة (الإحصان) دلالة على التعفف والتنزه والمنع والتصون، وأن الذى يرمى بتلك التهمة إنما يرمى عفيفا منزها، أو من شأنه أن يكون هكذا، أو من شأن المسلمين أن يظنوا به هذا الظن قبل رميه بهذه التهمة(١). ولعلاج هذه التهمة الشنعاء تضمنت الآية الحكم مهددة ومحذرة بالجلد وعدم قبول الشهادة والحكم عليهم بالفسوق فى قوله (وأولئك هم الفاسقون)، وقد بنى الحكم على ما أشار إليه اسم الإشارة (أولئك) من الأوصاف المعروضة من قبله جزاء هذه التهمة، فدل على أن ما قبله علة لما بعده، وذلك أن اسم الإشارة (وهو للمتوسط مع قرب المتعين يفيد زيارة تمييزه، بحيث يستحضر السامع أوصافهم المذكورة (يرمون المحصنات) حتى يتنبه بذلك على أنهم لأجل

١) التفسير القرآنى ١٨/١٢٢١ بتصرف.

هذه الأوصاف أحقاء بما يرد بعد اسم الإشارة، فيكون من ترتيب (الحكم على الوصف المناسب ليفهم العلة)(١)

قال تعالى **(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)**(٢) جاءت هذه الآية فى معرض استثناء من الحكم المقضى به على الذين يرمون العفيفات، ولم يكن بين أيديهم الحجة القاطعة، وقد تضمن هذا الحكم أموراً ثلاثة، ومن ثم اختلف فيما يقع عليه الاستثناء، أهو الجلد، أم عدم قبول الشهادة؟ أم وصفهم بالفسق؟ وهل ترفع (التوبة) عن الذين أقيم عليهم حد القذف، هذا الخطر الذى أقيم عليهم برد شهادتهم؟ وهل ترفع عنهم وسمهم بالفسوق؟ ومنشؤ هذا الخلاف يعود إلى تصدير الآية الكريمة بالتفريق الاستثنائى الذى يعنى: التفريق بين حكمين بصيغة استثناء، يخرج أحدهما من محيط الآخر، فيكون اقتران الحكم به علة امتياز عن الآخرة.

والذى عليه أكثر المفسرين: دخول التوبة بالاستثناء على الوصف بالفسق وحده، بمعنى: أن المجلودين فى هذا الحد، إذا تابوا وأعلنوا توبتهم على الملأ وأصلحوا ما فسد منهم، رفعت عنهم صفة الفسق، أما الخطر الذى أقيم عليهم بعدم قبول شهادتهم فهو قائم، لا ترفعه التوبة، لأنه جاء حكماً مؤبدا (أبداً) وهو ما أكده بعض المحققين من أن الحنفية قالوا: برجوع الاستثناء (الا الذين تابوا.....) إلى الجملة الأخيرة من الآية السابقة عليها (وأولئك هم الفاسقون...) لأن الجملتين الأوليين (فاجلدوهم... ولا تقبلوا..) وردتا جزاء، لأنهما أخرجتا بلفظ الطلب مخاطباً بهما الأئمة، ولا يضر اختلافهما أمراً ونهياً، والجملة الأخيرة (وأولئك هم الفاسقون) مستأنفة بصيغة الإخبار، دفعاً لتوهم استبعاد كون القذف سببا لوجوب العقوبة التى تندرئ بالتهمة، وهى قائمة – هنا – لأن القذف خبر يحتمل الصدق، وربما يكون حسبة، ووجه الدفع: أنهم فسقوا بهتك ستر العفة بلا

---

١) شرح الفوائد الغياثية لأحمد بن مصطفى طاشا كبرى زادة / ٧١ بتصرف ط دار الطباعة العامرة/تركيا سنه ١٣١٢هـ، والكشاف للزمخشرى ١/١٤١ ط مصطفى الحلبى سنه ١٣٩٢هـ القاهرة ومعه حاشية السيد الشريف.

٢) سورة النور / ٥

فائدة، وأوقعوا السامع فى بلبلة وشك من غير مصلحة دينية بذلك، والعرض مما أمر الله (تعالى) بصونه، إذ لم يتعلق بهتكه مصلحة، وحيث عجزوا عن الإثبات، فقد استحقوا العقوبة، وحيث كانت الآية (وأولئك...) مستأنفة توجه الاستثناء إليها[1] دون غيرها.

فالغرض المسوق له الآية الكريمة هو التقرير والتأكيد على أمر قبول توبة وصلاح كل من صدر عنه هذا الاتهام البذئ، مع التثبيت لأثرها المرجو فى إزالة الخطر العالق بهم وهو (اتهامهم بالفسوق) رمزاً لسعة رحمة الله معهم وشمول مغفرته وعطفه لهم، فالتعبير باسم الموصول (إلا الذين...) أدل على هذه المعانى من غيره، إذ أن التعبير به يزيد الغرض تقريراً وتأكيداً لاشتمال الصلة (تابوا من بعد ذلك وأصلحوا...) على ما يفيد هذه الزيادة فى التقرير، ولأن أمر الفسوق يتعلق بحق من حقوق الله، لا حق الناس، من هنا تسهم التوبة فى إزالته ومحو أثره، أما شهادة الزور ففيه حق الناس، الذين تحمل عليهم هذه الشهادة، فلا ترفع، بل تظل باقية أبد الدهر، وفى هذا فتح لباب الأمل أمام النادمين، وتشويقهم إلى سعة رحمة الله ومغفرته لذنوبهم متى كانت وأينما كانت؟![2]

ويمكن أن يكون لتعريف المسند إليه بالموصولية – هنا – سر بلاغى آخر، ألا وهو: تقرير المسند إليه نفسه (الذى...) والمرموز له بالتوبة والصلاح، إيماءاً إلى إعمال فكره وضميره اللذين كانا سبباً فى تمام توبته تماماً يصلح به الرامى ما أصاب برميته من جراح، أصابت المقدوف فى شرفه، وسمعته، كما أصابت أهله برذاذ هذا الدم الذى يقطر من جراحه، وصلاح هذا التائب لا يعترف به إلا إذا أعلن على الملأ أنه كان مخطئاً، أو غير متحقق مما شهد به، أو أنه ألبس عليه الأمر، واختلط عنده الحق بالباطل... إلى غير ذلك مما يكون سبباً فى تطييب خاطر المتهم، ومحو ما كان متسبباً فيه من أثر هذا الاتهام

---

١) روح المعانى ١٨/١٠٠ بتصرف
٢) التفسير القرآنى ١٨/١٢٢٤

الفاضح، والذى يقطع به ألسنة السوء فيه، أو يمسكها عن التمادى فى النيل من هذه النفس التى اتهمت زوراً وبهتانا.

قال تعالى (**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**)[1] لما كانت العلاقة بين نوعى (الجنس البشرى) ليست مجرد علاقة غريزة بهيمية، بل هى أداة للخدمة البشرية، بإنشاء المحضن الآمن الواعى المتخصص لإنتاج صناعة البشر، وهى أثمن وأغلى صناعة عرفتها الأرض إلى قيام الساعة، مع اعتبار الواجب لا اللذة هو عماد هذه العلاقة، أقام الإسلام سياجاً منيعاً – يسمى بالعقوبات – للحفاظ على الكيان الأسرى، وجريمة القذف واحدة من الجرائم التى لها أثر فى حياة الأسر والمجتمعات، إذ تهوى بسببها الرؤوس الشامخة إلى حمأة الوضاعة والخسة، بل وتخرب البيوت وتشرد أصحابها، وتسود الوجوه البيضاء الكريمة، فتحيلها وجوهاً حالكة بالمهانة والذلة والكآبة[2] بل تجردها من كل نظرة احترام، وتطمس ما قد يكون لها سلفاً من صحائف بيضاء، من أجل هذا عمد الإسلام إلى هذه الجريمة فجعلها من الكبائر وشرع لها حد القذف، فقد جاء فى الصحيحين أن رسول الله – ﷺ – قال (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات)[3] من هنا جاءت هذه الآية بيانا لحكم الذين يوجهون التهم لأزواجهم المدخول وغير المدخول بهن، وكذا المعتدات فى طلاق رجعى، مؤثرة التعبير باسم الموصول (الذين يرمون...) تأكيداً على استهجان التصريح باسم المسند إليهم هذا الفعل الشنيع، ودرءاً لنفور النفس من سماع أخبار من كانت تلك صفاتهم، فإذا وضع الرجل امرأته موضع

---

١) سورة النور / ٦
٢) الإسلام ومشكلات العصر للأستاذ/ سيد قطب/١٧ ط دار الشروق – ط /١٤٠٢/٧هـ – ١٩٨٢م.
٣) رواه مسلم

التهمة، ورماها بهذا المنكر، لم يكن مطالباً عند إثبات هذه التهمة – إحضار من يشهد على تلك الواقعة، إذ لا يقبل رجل على نفسه أن يعرض امرأته فى هذا المعرض، أو أن يفضحها تلك (الفضيحة المعلنة على الملأ). أعود فأكرر: إن المطلوب من رامى زوجته أن يستشهد نفسه، ويحتكم لدينه وضميره فيستخرج من كيانه أربعة شهود، يشهدون على لسانه هذه الشهادة، وبذا يتحملها ديانة أمام الله.

ويصح أن يكون لتعريف المسند إليه بالموصولية سر بلاغى ثان هو عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة (رمى الزيجات) فالمخاطب لا يعلم عن المتحدث عنهم شيئا سوى إنهم كانوا من ذوى النفوس المضمرة، والأحوال المبهمة، وفجأة وبدون مقدمات يراهم لأول مرة وهم فى مشهد مهيب ليعلنوا ملاعنة زوجاتهن. والواقع أن الزوج لا يسوق زوجه إلى هذا الموقف إلا إذا قامت بين يديه القرائن القاطعة، وهو ما أكدته الآية فى أساليبها المتنوعة (كالنفى والاستثناء) مع تكرار هذه الشهادة المعلنة، وتكرار ذكر اسم الله معها، مما يتيح للرجل فرصة التراجع عما أقدم عليه، فربما يقوم أمره على ظن أو شك، فى الوقت الذى يبيح فيه الشرع الستر على المرأة مع التحقق من فعلها مع بقائها فى عصمة زوجها، درءاً لأحاديث الناس بالفحشاء، والتى تكون سبباً فى شيوع الفجور والفسوق لظاهر ما روى من (أن رجلاً قال يا رسول الله إن امرأتى لا ترد يد لامس قال طلقها، قال: إنى أحبها، قال فأمسكها) لكن الواقع يرينا كثيراً من الأزواج وقد أعمتهم الغيرة، فيخالون غير الواقع واقعاً، ثم لا يرضون إلا أن يكون انتقامهم من المرأة على تلك الصورة الفاضحة المخزية، والتى يكون أهون ما فيها من عقاب هو نفى نسبة الولد إليه، إن كانت حاملاً، لذا قال بعض العلماء لا يحل للرجل قذف زوجته، إلا إذا علم زناها، أو ظنه ظناً مؤكداً، كأن شاع زناها بفلان، والأولى به تطليقها ستراً عليها ما لم يترتب علي فراقها مفسدة، هذا إذا لم يكن هناك ولد، فإن أتت بولد علم أنه ليس منه، أو ظنه ظناً مؤكداً، وجب عليه نفيه، وإلا لكان بسكوته مستلحقا لمن ليس منه وهو حرام، كما يحرم عليه نفى من هو منه، لقوله ﷺ: (أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله تعالى فى شئ ولن يدخلها الله تعالى جنته

وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله – ﷻ – عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين...)[١]

ما أعظم هذا التشريع الربانى وما أجمله فى بيان رحمته ورأفته بعباده، إذ لو لم يشرع لنا هذا الحد – والذى يظنه البعض مذمة فى حقه، أو تنزيلا لمكانته – لوجب على الزوج حد القذف، مع أن قرائن الأحوال تدلل على صدقه، باعتباره أعرف الناس بحالة زوجه، وأنه لا يفترى عليها، لا شتراكهما فى الفضيحة، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها، لأهمل أمرها وكثر افتراء الزوج عليها، لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والرحمة والتفضل. ومن ثم جعلت شهادة كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما، دارئة عنه العقوبة الدنيوية، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته، بأشد مما درأه عن نفسه، وهو العقاب الأخروى[٢].

قال تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)**[٣] للعلاقة الزوجية اعتبارات خاصة، وينبغى أن يكون لها حساب وتقدير فى أعراف الناس، يختلف تماماً فى طبيعته عن حساب الأجنبى الذى يرمى المحصنة أو المحصن، وأم المؤمنين (عائشة) هى غير عامة المحصنات، وهى غير كل الزيجات، إنها الأم لكل موحد وموحدة، فكان لابد أن يكون لأمر تعلق بعفافها ذكر خاص، وأن يتولى القرآن الكريم – نور الله فى الأرض – الكشف عن تلك الفرية التى اتهمت بها، وأن يقبض بقبضة من حديد على أهل هذا البهتان، ويسجل فضيحتهم، لتبقى عالقة بهم إلى الأبد تعلق الكلمة بلسان قائلها، من هنا جاءت الآيات لتعرض حكماً خاصاً لواقعة خاصة، ترمى فيها

---

١) رواه أبو داود والنسائى – وينظر تفسير آيات الأحكام / محمد على السايس ١٤٤/٣ بتصرف.

٢) روح المعانى ١١١/١٨ بتصرف

٣) سورة النور / ١١

أشرف الشريفات، زوج النبى - ﷺ - مع اتهامها بتلك التهمة الشنعاء، مؤثرة التعبير باسم الموصول (الذين جاءوا...) للتحقير والازدراء من المفترين لتلك الكذبة المنكرة، المذيعين لهذا البهتان العظيم، وتأكيداً على شناعة الفعل المنسوب إليهم وهو (مجيئهم بالإفك وجرحهم للنبى فى مشاعره، وفى الدعوة التى يقوم عليها)، إذ أن هذا البهتان المفترى لوجرى إلى غايته المنوطة به من قبل مفتعليه ومروجيه، ولم تعالجه السماء بهذا الدواء الربانى، حتى ترد للنفوس الطاهرة اعتبارها، وتأخذ لها بحقها، وتجزيها الجزاء العظيم على صبرها واحتمالها، لتحول إلى معول هدم فى صرح الاسلام، الذى لم يقم بنيانه بعد، ولكان حجة قوية فى يد أعداء هذا الدين، ممن أعمتهم الغيرة والحقد على هذا المعلم، فصاروا لا يعتدون بحرمة ولا ينزجرون لهدم مقدس من المقدسات.

ولما كان الموصول اسماً لا يعين مسماه إلا بواسطة صلته، فقد يكون الغرض من التعبير بالموصول بناءاً على ذلك، هو عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة، لذا عمدا البيان القرآنى للتعبير باسم الموصول فى هذا المقام كى تتعين بواسطته الصلة لدى المخاطبين، وهو ما أكدته إيثار (جاءوا) إشارة[1] لاختلاقهم إياه من عند أنفسهم، وإطلاقهم له من وحى أهوائهم الخبيثة، وتجميعهم لخيوطه من عالم الظلام، وتعاملهم به، وتبادلهم له فيما بينهم من غير أن يكون له أصل كما يتبادلون العملة الزائفة. أضف إلى هذا: تحديده بالإفك، فبمجرد النطق به والتلفظ باسمه تتحدد ماهيته هذا الذى جرى على ألسنتهم، وأثار البلبلة فى الخواطر، والاضطراب بالنفوس، فى صورة مجسدة (من الإفك) الذى لا تشعر به حتى يفجأك، والذى يصرفك عن الحق إلى الباطل، لما به من الإفتراء وخلق الأباطيل ونسجها من الكذب والبهتان، إلى غير ذلك مما يتلائم مع أصله المأخوذ منه[2] (وهو الكذب الفاحش والقبح) مثل: الكذب على الله ورسوله أو على القرآن، وجاء فى القرآن على هذا الوجه، قال

---

١) روح المعانى ١١١/١٨

٢) الفروق اللغوية لابى هلال العسكرى /٣٣ ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان بدون تاريخ، والتفسير القرآنى للقرآن ١١٢/١٨

تعالى (ويل لكل أفاك أثيم)[١] ولا يقال إفك حتى يكذب كذبة يفحش قبحها، وأصله فى العربية: الصرف، وفى القرآن (أنى يؤفكون)[٢] أى يصرفون عن الحق، وتسمى الرياح المؤتفكات، لأنها تقلب الأرض فتصرفها عما عهدت عليه، وسميت ديار قوم لوط المؤتفكات، لأنها قلبت بهم...).

والمراد: ما أفك به الصديقة أم المؤمنين (رضي الله عنها) على أن اللام فيه للعهد، وجوز حمله على الجنس، فيفيد حينئذ – القصر، كأنه قال: لا إفك إلا ذلك الإفك)[٣].

ولما كان أصل العصبة: هو الفرقة المتعصبة، قلت أو كثرت جاءت دلالة لفظ (عصبة) كوصف للجماعة التى جلبت هذا الإفك، واستوردته من ظنونها الخبيثة، وأوهامها الضالة، لتؤكد على ما بين المنافقين من تعصب لما يروجون، وتحمس لما يقولون، فقد تداعوا عليه، واجتمعوا من أجله، وأصبحوا عصبة له، لما بينهم من علائق الحمية والتراحم والترابط، فى فساد العقيدة، والاجتماع حول الشر، وضعف الإيمان، دون أدنى قدر من تفكر، أو أثارة من تدبر. ويأتى التعبير بلفظ (منكم) مؤكداً على تعريف المخاطبين بحقيقة هؤلاء المنافقين، ووقوفهم على خبث طويتهم، باعتبارهم فرقة متعصبة، يضمكم وإياهم مجتمع واحد وشعائر تعبدية واحدة، لكن الفارق بينكم وبينهم شيوع التعصب والحمية والتعاون على الباطل فيما بينهم، وذلك من أمارات كونه إفكاً لا أصل له، والخطاب فى (منكم) – كما يرى بعض المفسرين – لمن ساءه ذلك من المؤمنين، ويدخل فيه رسول الله (ﷺ) وأبو بكر، وأم رومان، وعائشة، وصفوان دخولاً أوليا[٤]. وتتوالى الألفاظ فى بيان الغرض المقصود مستثمرة التعبير بلفظ (لاتحسبوه شراً لكم...) مؤكدة على أن هذا البهتان المختلق، وإن بدا فى ظاهره الشر الذى تأذت به نفوس المؤمنين الطاهرة وضاقت به صدورهم الكريمة، فإنه

---

١) سورة الجاثية / ٧
٢) سورة فاطر / ٣
٣) روح المعانى ١١١/١٨
٤) السابق ذاته ١١٤/١٨

يحمل فى طياته خيراً كثيراً، حين ينجلى هذا الدخان، ويتبدد هذا الضباب، فيسفر عن وجه الحق، ويكشف عن آية من آيات الله فى طهر وتصون عائشة وعفافها،إذ كان خيراً لآل البيت والمؤمنين معهم، أما خيرية أهل البيت: بأن أعلم الله بفضلهم وطهرهم وعظيم مكانتهم وحرمتهم عند الله (تعالى)، وخير للمؤمنين: بأن علمهم من تشريعه ما يطهرهم به ويزكيهم، وكان خيراً لأبى بكر بأن نزل فى بيته وفى حق ابنته ثمانى عشرة آية يتعبد بها الناس ليوم القيامة، هذا – كما قلت – وجه من وجوه خيرية هذا الحديث الآثم، أما وجه التأذى والشرفيه، فيبدو فى كونه محنة شديدة مرت بالنبى المصطفى (ﷺ) الذى هو القائد والمعلم، والذى يوحى إليه من قبل ربه، ومع ذلك تراه العيون، وهو يتهم فى عرضه، بل وأحب نسائه إليه، فيالها من محنة..!! وكان هذا الإفك محنة لعائشة – أيضاً فهى المؤمنة الحصان، تعود من رفقة زوجها فى الغزوة مريضة، لتفيق على نبأ الإفك الذى ألم بحوزتها، فتصبح أسيرة المرض وتباريحه مرة أخرى، فضلاً عن بعد النبى – ﷺ – عنها والذى تبدو ملامحه فى مغزى السؤال عنها (كيف تيكم) على غير عادته التى عرف بها من التدلل والرحمة بهن – سيما – فى أيام المرض، مع قبول انتقالها إلى بيت أبويها لتمرض هناك، وتستشفى مما ألم بها، ولتستيقن الخبر من أبويها، بعد يقينها من وجود صدى للشك والبلبة فى نفس النبى وهو زوجها المحب، وكان الإفك محنة – أيضا – للصديق، الذى أخلص للإسلام ونبيه، ثم يتهم فى كريمته، حتى يجدها تبكى ذات يوم لما حل بها، فيبكى لبكائها قائلاً: ما وقع منا فى الجاهلية فكيف نتهم به فى الإسلام؟ ولا تحسب أن أمراً عرض لأبى بكر، منذ صحب الرسول (ﷺ) إلى تلك الواقعة، أشد وقعاً عليه، وابتلاءاً لصبره وإيمانه وشدة إيثاره للرسول (ﷺ) – من هذا الأمر، الذى هيأ نفسه فيه لتقديم ابنته وعرضه على مذبح التضحية والفداء فى سبيل الله، ومن أجل رسوله الكريم – صلوات ربى وسلامه عليه – إنه رضوان الله عليه – لم ينظر لنفسه ولا لابنته، إنما نظر لرسول الله (ﷺ) وما أصابه فى نفسه من هذا الأمر، وإنه لاشئ أبغض إلى الصديق، من شئ يصيب رسوله بالأذى، ولو كانت نفسه التى بين جنبيه، أو كانت فلذة كبده – عائشة – رضي الله عنها – من هنا ندرك: طبيعة ما كان يعالجه الصديق من هموم، وما يعانيه من آلام. فما أفدحها

محنة للصديق وبيته[1] وكان هذا الإفك محنة لمن شهد بدراً، وكان من المدافعين عن نبيه (ﷺ) ولا يشهد له إلا بكل خير، إنه صفوان بن المعطل، الذى لم ير لأم المؤمنين وجهاً، حتى أدرك النبى (ﷺ) فى بعض الطريق دون أن يتفوه معها بكلمة، ولما لا؟! والقرآن ينتزل على مسامع المؤمنين عامة ومنهم صفوان، (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم...)[2]. كما كان هذا الحادث محنة للمخلصين والشرفاء منهم، وهو مانراه واضحاً فى حوار هامس بين أبى أيوب الأنصارى وزوجه، يوم أن قال لها: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت مكان صفوان، أكنت تظن بحرمة رسول الله – ﷺ – سوءاً؟ قال: ألا، قالت: فعائشة خير منى، وصفوان خير منك...) وقد نهوا عن حسبان ذلك شراً لهم، إراحة لبالهم، بإزاحة ما يوجب استمرار بلبلتهم، وأردف سبحانة وتعالى: النهى عن ذلك بالإضراب فى قوله (بل هو خير لكم...) اعتناءاً بأمر التسلية للنبى ومن معه من المسلمين[3]، يقول الزمخشرى: (ومعنى خيريته: اكتسابهم الثواب العظيم، لكونه بلاءاً ظاهراً، وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله (ﷺ) وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين، وتطهير لأهل بيته، وتهويل لمن تكلم فى ذلك، أو سمع به فلم تمجه أذناه...)[4] وأى خير أعظم من هذا الخير؟ وأى شئ فى الدنيا كلها يعد له، أو يعدل بعضا منه؟!

وبمراجعة السياق العام للآية نجده يقوم على الالتفات، فبينما يتحدث عن كونهم عصبة منكم، ولا تحسبوه شراً لكم، نجده وقد التفت إلى الجائين مرة ثانية فقال: (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم...) ولا يخفى ما للالتفاف من قيمة بلاغية، يقول عنها الخطيب القزوينى: (واعلم أن الالتفاف من محاسن الكلام، ووجه حسنه على ما ذكره الزمخشرى هو أن الكلام متى نقل من اسلوب لآخر

---

١) التفسير القرآنى /١٨/١٢٣٤ بتصرف
٢) سورة الأحزاب/
٣) روح المعانى ١١٥/١٨
٤) الكشاف للزمخشرى ١٢٥/١٧

كان ذلك أحسن تطربة لنشاط السامع،وأكثر إيقاظاً للإصغاء من إجرائه على أسلوب واحد،(١) فالالتفات – هنا – فيه إمتاع ولذة للسامع وتجديد لنشاطه، نظراً لما يكسبه للكلام من الطرف والظرف، وكل ذلك يجعل المخاطب مهيئاً، لما يلقى إليه من كلام، فيتمكن معناه فى نفسه فضل تمكن، وهو ما يبدو واضحاً فى الالتفاف من الخطاب للغيبة والعكس فى (جاءوا، منكم، لكم، لكل امرئ منهم، كبره.....).

وتمضى الألفاظ والأساليب فى توضيح طبيعة هذه العصبة الآثمة والتى شأنها شأن كل عصبة متآلفة مترابطة، لها رأس فاسد يدفعها إلى الشر، ويجمعها عليه، وباعتبار نفوذه هذا له أضعاف ما يلقاه غيره من العذاب والهوان، ومن وراء هذا الرأس أعضاء، تعمل معه ولكل عضو منهم مكانه ودوره المنوط به، والذى لا يحيد عنه قدر أنملة (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم...) بتقديم ما حقه التأخير، والتنكير فى لفظ (امرئ) استهجاناً بالتصريح باسماء هؤلاء الجائين للحدث والمختلقين له. أضف إلى هذا استثمار الموصول (ما) بعمومه وشموله فى تفخيم وتهويل وتعظيم شأن هذا الذى قد خاض فيه كل واحد منهم، فجزاؤه مقيد بقدر ما اجترح واختلق، وهو ما يتناغى بطبيعته فى إيثار الفعل (اكتسب) دون غيره من الأفعال، فالكسب هو: الفعل العائد على فاعله بنفع أو ضر(٢)، نتيجة مراسه وعلاجه لهذا الفعل، وما حدث من مجموع الخائضين يدل دلالة واقعية على طبيعة ما فعله كل واحد منهم ومدى مراسه وعلاجه لما سمع بالكثرة أو القلة أو العجب، وليس هناك أدل على هذا المعنى فى شموله لأفعال الخائضين وتفخيمه وتعظيم شأنه من الموصول (ما)، ثم يأتى التعبير بالموصول

---

١) الإيضاح للخطيب القروينى بتعليق الشيخ / عبد المتعال الصعيدى – المسمى بغية الإيضاح ١٥٧/١،١٥٦، المطبعة النموذجية، بمصر – مكتبة الآداب.

٢) وقال بعضهم: الكسب ما وقع بمراس وعلاج، والاكتساب: فعل المكتسب... فحد المكتسب هو الجاعل للشئ مكتسباً له بحادث إما بنفسه أو غيره، فمكتسب الطاعة هو الجاعل لها مكتسبة بأحداثها، ومكتسب المال هو الجاعل له مكتسباً بإحداث ما يملكه به، ينظر: الفروق اللغوية /١١٢

(والذى تولى كبره) إيماءاً إلى نوع الخبر المراد إسناده إلى المسند إليه المعبر عنه باسم الموصول من حيث كونه ذماً، فضلاً عن التحقير والازدراء للمسند إليه هذا الفعل تنفيراً من فعله وشناعة لما صدر عنه، فلا يستحق التصريح به ولا باسمه، وإنما بتنبيه المخاطب لفعله الخاطئ، وذلك بما فى الصلة لما يشعر بهذا الخطأ، وهو ما يتلائم وطبيعة (الكبر) وهو: إظهار عظم الشئ وبدايته، وتحمل معظمه، والمراد به – هنا – عبد الله بن أبى، فهو الذى ابتدأ هذا الكلام إذ كان يجمع الناس ويذكر لهم ما يذكر من الإفك فيقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقود بها، فهو الذى بدأ الخوض، وهو الذى بثه وأشاعه لإمعانه فى عداوة رسول الله (ﷺ) وعذابه فى الآخرة بعد جعله فى الدرك الأسفل من النار، والذى لا يقدر قدره إلا الله (عز وجل) وأما فى الدنيا فوسمه بميسم الذل وإظهار نفاقه وحده بحدين مع إذهاب بصره، وكسعه بالسيف من صفوان، وفى التعبير بالموصول، وتنكير العذاب، ووصفه بالعظم من تهول الخطب ما لا يخفى)(١).

قال تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ)**(٢) مقصود هذه الآية ذم لهؤلاء المنافقين الذين يعيشون وسط المجتمع المؤمن، ولا يعرفون له حدوداً، فهم يتكلمون بألسنة المسلمين، مع امتلاء قلوبهم بالرجس والهوى وحب انتشار الفاحشة فى صفوفهم، بنشر الأخبار الكاذبة، وإذاعة أنباء الزنا عن المحصنين والمحصنات من المؤمنين، لذا عمد البيان القرآنى إلى التعبير بالاسم الموصول (الذين) دفعاً لقبح التلفظ باسمائهم، ودرءاً لنفوز النفس من سماعه، ولشناعة الفعل المنسوب إليهم، إذ يرون فى سلوك كل شريف تحدياً لهم، وإعلاناً على نفورهم منهم، هذا الصنف المعبر عنه بالموصول (الذين) مريض، يريد أن يستر كل خير، وينشر كل إثم، لذا عقبه بـ (يحبون) دلالة على استحضار هذه الصورة

١) روح المعانى ١٨/١١٥
٢) سورة النور / ١٩

وتجدد استمرارها بقصد وإرادة متعمدين من أصحابهما، دلالة على أن هذا ديدنهم المنوط بهم، أما إشاعة الفاحشة فى المجتمع فله وجوه متعددة: قد يكون بالإقدام على الفاحشة مع استمرائها، أو بالإعلان عنها والتحدث بها إلى الناس، أو بإذاعة الأحاديث عنها، أو بالإصغاء إلى المثرثرين بها دون أن يردعهم رادع، وتنطبق – أيضا – على إنشاء دور للفاحشة، وما يرغب الناس فيها، ويثير غرائزهم الدنيئة، من القصص والأشعار والغناء والصور والمسارح، كما تنطبق على كل مجلس يشيع فيها الرقص والطرب، ويشترك فيه الرجال والنساء، على صورة خليعة مختلطة،(١) هذه الأمور إذا لم تؤخذ عليها السبل – فى بدء أمرها – استشرى خطرها، واتسعت دائرتها، حتى ليصبح المجتمع كله واقعاً فى قبضتها، إنها أشبه بالنار، تكون أول الأمر شرارة، فإذا هى لم تعالج فى الحال، اندلعت ألسنتها، وعلا لهيبها، وصارت حريقاً عظيماً لا يدفعه شيئ، فتقع الجماعة كلها تحت الخطر الذى تحبه هذه الفئة الممقوتة، ومادامت النكات البلاغية لا تتزاحم، فيمكن أن يكون الغرض البلاغى من التعبير بالموصول – هنا – التعريض بتعظيم شأن غير الخبر، ففى التعبير بالموصول عن المسند إليه (حب إشاعة الفاحشة) إشارة إلى نوع الخبر (وهو سوء حال من نزلت الآية فيهم كعبد الله بن أبى، ومن وافقه قلبا وقالباً، ومن هم على شاكلتهم إلى قيام الساعة، وأن لهم الحظ الأوفر من العذابين، حيث أحبوا الشيوع وأشاعوه، لكن هذا الإيماء إلى نوع الخير ليس مقصوداً لذاته، بل هو وسيلة إلى التعريض بتعظيم شأن غيره وهو: مجتمع المؤمنين الذين يرون الحق حقا والباطل باطلاً، والذين يأنفون من أمثال – هؤلاء الآنف ذكرهم – وأفعالهم، ولا يرضون السماع بها حرصاً على تنشئة أولادهم وأسرهم فى مجتمع إيمانى هدفه هو إرضاء الله ودخول جنته، أما هؤلاء فهم جناة بنص القرآن، يجب ألا تصرح بأسمائهم ولا بطبيعة أفعالهم، استخفافا بهم، كما يجب ألا ينالوا عقابهم فى الآخرة – فقط – بل فى الدنيا كذلك. وعلى هذا يكون التعبير بالمضارع (يحبون، تشيع) للإشارة إلى زيادة تقبيحهم بأنه قد صارت محبتهم لشيوع الفاحشة عادة مستمرة منهم

---

١) تفسير سورة النور لابى الأعلى المودودى/١٢٣، فى ظلال القرآن ٤/٢٥٠٤

لاتفارقهم، ومن هنا قيل إن ذكر المحبة (يحبون) من قبيل الاكتفاء،عن ذكر الشيئ، وهو الإشاعة بذكر مقتضيه، تنبيهاً على قوة المقتضى، وقيل: إن الكلام على التضمين، أى يشيعون الفاحشة محبين شيوعها، لأن كلا معنى المحبة والإشاعة مقصودان[1]. وقد أسهم فى بيان هذا المعنى وتأكيده (تقديم الجار والمجرور (لهم) مع تنكير لفظ (عذاب) أضف إلى هذا الوصف الملازم للعذاب، مما يوحى بقصر هذا العذاب وتخصيصه بالمحبين لإشاعة الفاحشة، فى الوقت الذى نكر فيه نوعية العذاب الدنيوى والأخروى لتذهب النفس فيه كل مذهب، وليكون نوعاً من أنواع الزجر والردع والحرمان. أما ختام الآية (والله يعلم وأنتم لا تعلمون...) فهو اعتراض تذييلى جئ به تقريرا لثبوت العذاب لهم وتعليلاً له، وقد وضع هذا الأمر وضعاً اعتراضياً فى ختام المعنى المراد من منظور النسق السياقى، ليدل بموضعه فى بناء العبارة على وظيفة مضمونه، وكأنه يومئ بمكانه فى التركيب على أنه إذا ما كان قد اعترضت عبارته فى عالم البيان، فهو تحذير لمن يستمعون لقالة السوء، فأكثر مقولاتهم يشوبها الكذب والافتراء، وأكثر ما يدفع قالة السوء لهذا المركب الآثم، هو ادعاؤهم العلم بخفايا الأمور، وأنهم يعلمون ما لا يعلم الناس، وهذا ليس من العلم فى شئ، فما هو إلا قشور علم، أما العلم الحق، فهو ما يعلمه الله، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

قال تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)[2] لقد بدأت العداوة بين الشيطان والإنسان من اليوم الذى شكلت فيه طينة آدم، وقبل أن ينفح فيه الروح، فقد أخذ الشيطان يدور حوله قائلاً، لئن سلطت على لأعصينك، ولئن سلطت عليك لأهلكنك. فعن أنس (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: لما صور الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطوف به ينظر ما هو،

١) روح المعانى ١٨/١٢٣

٢) سورة النور / ٢١

فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لايتمالك...)[1] فلما نفخ فيه الروح وأمر له بالسجود كانت المفاجأة الكبرى لإبليس اللعين، تلك المفاجأة التى حركت حقده الدفين، ومن ثم دفعته لأخذ العهد على نفسه بإضلال آدم وذريته، **(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً)**[2] ومن ثم فقد حذر القرآن كثيراً، وأطال التحذير من عداوته، فقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[3] من هنا جاء هذا النداء الإلهى (يا أيها الذين آمنوا...) مستثمراً اسلوب النداء بـ (يا) التى ينادى بها للبعيد، دلالة على علو شأن المنادى عليهم، ورفعة منزلتهم، فهم أحق الناس بسماع هذا النداء والتجاوب معه، ما داموا قد أعلنوا إيمانهم بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً، فضلاً عن التعبير بالموصول (الذين..) إيماءا إلى وجه بناء الخبر الآتى، فإن المتكلم فى بعض المقامات قد يقصد إشعار السامع بنوع الخبر قبل النطق به، فيقتضيه هذا القصد تعريف المسند إليه بالموصولية، ليتحقق له الإيماء إلى نوعية الخبر، نظراً لما يكون فى الصلة من مناسبة للخبر تشعر بنوعه، وطريق إسناده إلى الموصول قبل النطق به، وهو ما نراه محققاً هنا – فطبيعة الإيمان المصاحبة لكم هى من أهم الحواجز الرئيسة لكم فى عدم اتباعه، كما جاء فى اسلوب النهى المؤطرة به الآية بعد أسلوب النداء فى قوله (لا تتبعوا خطوات الشيطان) مؤكداً على أن طبيعتكم هذه هى من أهم النواهى لكم فى سلك مسالكه، والسير وراؤه، والوقوع فى شركه وشباكه، وإذا كان الله قد حذر من الشيطان وإغوائه، فلماذا ننسى أو نتناسى هذا التحذير ونسير وراءه؟! أينسى الإنسان عداوة الشيطان؟ كيف ذلك؟! والقرآن يردد على مسامعه (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو....)[4] وإذا كان الإنسان فى دنيا الناس لايمكن له الثقة فى عدوه من

١) رواه مسلم فى صحيحه باب البر والصلة/٢٦١١، وأحمد فى مسنده / ١٢١٣٠
٢) سورة الاسراء / ٦٢
٣) سورة فاطر / ٦
٤) سورة الكهف / ٥٠

الإنس، إذا ما قذف فى قلبه أنه يعمل لصالحه، فكيف يصدق الشيطان، وهو يعلم – كل العلم – أنه يسعى لهدمه وتعاسته وشقائه؟. وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان، فيتتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس بالنفور منه، وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشئوم، صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله! فضلاً عن أن رسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير فى نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية[١]. ما أعظم البيان القرآنى حين رسم للشيطان صورة بارزة واضحة لها خطوات ومنازع، وأهواء ونزغات تلك التى تقوم على المكر والخديعة، إذ يلبس الأشياء غير ثيابها، ويطلى الأمور بغير ألوانها، فكيف الاطمئنان به وله، وهو المعلن دوامه فى إضلال الإنسان ما بقيت له حياة؟ فقد جاء فى الحديث قوله لرب العزة (وعزتك.. لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم، قال الرب: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى...)[٢] ثم يأتى استثمار الموصول (من) فى إطار الآية (ومن يتبع خطوات...) للتأكيد على التحقير والازدراء للمسند إليه، وللتنفير من شأنه، ودرءاً لنفور المستمع من معرفته – سيما – وديدنه هو صلته المتبع بها وهى اتباع الخطوات الشيطانية، (وقد وضع الظاهران (خطوات الشيطان) موضع ضميريهما، زيادة فى التقرير والمبالغة من اتباعه وامتثال وساوسه، فكأنه قيل: لا تتبعوه فى شئ من أفاعيله، والتى من جملتها: إشاعة الفاحشة وحبها فإنه عدو لكم، وكيف تتخذون العدو حبيباً؟ والخائن ناصحاً وأميناً؟ والحاسد الحاقد ولياً ومرشداً ونصيراً؟ أيرشدكم إلى الهدى، وقد ضل هو؟ أيرشدكم إلى الطاعة وقد عصى هو؟ أيرشدكم إلى النجاة وقد هلك هو؟ أيرشدكم إلى ذكر الله والصد فعله هو؟[٣] وهكذا يؤتى بالمسند إليه معرفاً بالموصولية (يا أيها الذين آمنوا...... ومن يتبع خطوات.........) للإشارة

١) فى ظلال القرآن / سيد قطب ٢٥٠٤/٤ ط / دار الشروق.
٢) صحيح الجامع ٧٢/٢، وحديث حسن، رواه أحمد /١٠٨٥١، والحاكم فى مستدركه ٧٦٧٢، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع / ١٦٥٠
٣) روح المعانى ١٢٤/١٨

إلى نوع الخبر المراد إسناده إليه أو الحكم به عليه فيفطن المخاطب من فاتحة الكلام إلى ما تدل عليه خاتمته، فكأنه قيل: من يتبع الشيطان فهو مرتكب الفحشاء والمنكر، باعتبار أنه لا يأمر إلا بهما، ومن كان كذلك لا يجوز اتباعه وطاعته.

أما قوله تعالى (ولكن الله يزكى من يشاء...) فقد آثر التعبير بالموصول (من) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو التزكية لهم، فضلاً منه ونعمة، إذ أن الإنسان بطبعه ضعيف، وهو عرضة لنزغات الشيطان، والناس هم أبناء الخطيئة، وأنهم جميعاً – بما ركب فيهم من طبيعة حيوانية – معرضون للذل، والوقوع فى الخطايا، إلا أن يدركهم فضل الله ورحمته، كما أدرك من كانوا سبباً فى نزول تلك الآيات مع توفيقهم للتوبة الممحضة من الذنوب، وكذا تشريع الحدود المكفرة للخطايا والآثام، فضلاً عن: إفاضة آثار فضله ورحمته على من أراد تزكيتهم من الآثام، بل وحملهم على التوبة بتيسير أسباب قبولها منهم، كما فعل – سبحانه – بمن سلم عن داء النفاق ممن وقع فى شرك الإفك منكم، (والله سميع عليم) بجميع المعلومات والتى منها نياتهم، وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم، مع ما فيه من تأكيد الاستقلال التذييلى....)[1].

قال تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ – يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**)[2] بعد أن تعرض البيان القرآنى لاتهام السيدة عائشة فى حادث مغلوط، وبيان عقاب من اتهمها بالإفك، مع شديد عذابه يوم القيامة، وما أعدله، مسهباً فى ذلك إيما إسهاب، أعقبه – هنا – ببيان حكم عام، وهو أن كل من أتهم محصنة مؤمنة غافلة، مطرود من رحمة الله، بعيد عن دار نعيمه، معذب فى جهنم، إلا إذا تاب وأصلح وحسنت توبته، من هنا جاء التعبير

---

١) السابق ذاته ١٢٥/١٨ بتصرف
٢) سورة النور ٢٣/٢٤

بالموصول (الذين يرمون......) لاستهجان التصريح باسم المسند إليهم، لشناعة الفعل المنسوب إليهم، وهو القذف بالزنا زوراً وافتراءاً – سيما – أنها رمية بدون تريث أو أدنى تفكير، ولتعليم إياهم بما تضمنته الصلة من فعل الرمى (يرمون) إلى أن هذا الاتهام قول ساقط، لا يصدر مثله عن عاقل، ويجوز أن يكون الغرض للتعبير بالموصول: تنبيه المخاطب على خطأ وقع من غيره، ألا وهو الرمى بالزنا، ففى الصلة ما يشعر بهذا الخطأ – سيما – أنهن غافلات عما يرمين به، إذ لم يخطر ببالهن هذا الفعل أصلاً لكونهن مطبوعات على الخير، مخلوقات من عنصر الطهارة، ففى هذه الوصف من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس فى المحصنات، فضلاً عن أنهن مؤمنات، وتأخير المؤمنات عما قبلها مع أصالة وصف الإيمان فيهن، للإيذان بأن المراد بها المعنى الوصفى (الإيمانى) المعرب عما ذكر، لا المعنى الاسمى المصحح لإ طلاق الاسم فى الجملة، فهى المؤمنة، الكاملة الإيمان، المتحصنة بإيمانها الوثيق، الذاكرة لجلال ربها وخشيته، ففى كل صفة من هذه الصفات عاصم يعصم المتصف بها من الذلل، وكيف؟ وقد اجتمعن جميعا فى الصديقة بنت الصديق، قال ابن جرير: فسر ابن عباس سورة النور، فلما أتى على هذه الآيه (الذين يرمون المحصنات) قال هذا فى شأن عائشة و أزواج النبى (ﷺ) وهى مبهمة، وليست لهم توبة، ثم قرأ (والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهداء...) قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف عائشة أو أزواج النبى (ﷺ) توبه، قال: فهم بعض القوم بتقبيل رأسه من حسن تفسيره للآية، وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح[1] ويعضد العموم ما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال (اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[2]، وهو ماأكده التعبير بقوله (الذين يرمون

---

١) تفسير ابن كثير، تحقيق الصابونى ٢/٥٩٤

٢) متفق عليه: رواه البخارى ومسلم وأورده صاحب رياض الصالحين فى باب التغليظ فى تحريم السحر تحت رقم ١٧٩٣ ص ٤٥٤

المحصنات........) يقول صاحب الظلال: (ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها، وهو يصورها للمحصنات المؤمنات، وهن غافلات غارات غير آخذات حذرهن من الرمية، وهن بريئات الطوايا ومطمئنات، لا يحذرن شيئاً، لأنهن لم يأتين شيئاً يحذرنه، فهى جريمة تتمثل فيها البشاعة، كما تتمثل فيها الخسة ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة...)[١] وقيل: إن المراد بالموصول فى (الذين يرمون....) أناس مخصوصون رموا عائشة (﵂) استباحة لعرضها، وقصداً إلى الطعن برسول الله (ﷺ) كابن أبى وإخوانه المنافقين، وعلى هذا يكون التعبير بالمضارع (يرمون) لاستحضار الصورة التى هى من أغرب الغرائب، أو للإشارة إلى أن شأنهم الرمى، وأنه يتجدد منهم آناً فآنا، وعلى هذا: يمكن أن يقال: المراد بالموصول هو بيان حكم من لم يتب من الرمى، فإن التائب من فعله قلما يقال فيه إن شأنه ذلك الفعل، فيكون الوعيد مخصوصاً بمن لم يتب، وليس هو إلا اللعين وأشياعه المنافقين)[٢]. ثم يأتى التعبير بقوله (يوم تشهد عليهم...) ولم يغلظ القرآن فى شيئ من المعاصى تغليظه فى إفك إم المؤمنين عائشة، فأوجز فى ذلك وأشبع، وفصل وأجمل... وما ذلك إلا لأمر.... وهذا منه تعظيم ومبالغة فى أمر الإفك. ولقد برأ الله (تعالى) أربعة بأربعة: برأ يوسف (﵇) بشاهد من أهلها، وموسى (﵇) من قولة اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه، ومريم (﵂) بإنطاق ولدها، وعائشة (﵂) بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات، فانظركم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله، والتنبيه على عظيم مكانته (ﷺ)[٣]. ولما كان الغرض من التعبير بالموصول- كما قلنا آنفاً – هو استهجان التصريح باسم المسند إليهم هذا الفعل، لشناعته، فهو بهذه المثابة، يعد وعيداً لأولئك الذين لم يمسكوا ألسنتهم بعد عن الخوض فى هذا الحديث، والذين ما يزال فى نفوسهم بقية من شك فى براءة أم المؤمنين وطهرها. ويأتى التعبير بالموصول (ما) فى قوله

---

١) فى ظلال القرآن ٢٥٠٥/٤
٢) روح المعانى ١٢٧/١٨ بتصرف
٣) تفسير النسفى ١٣٨/٣

تعالى (بما كانوا يعملون[1].......... أولئك مبرءون مما يقولون......)[2] دلالة على التفخيم والتهويل من شأن ما عمله هؤلاء، بل ومما قالوه إفكا وزوراو بهتاناً، ومن أجل تحقيق هذا المعنى عبر فى الآيتين بما الموصولية، لأن فى إبهامها تفخيماً وتهويلاً، لا يفى به التصريح، فيما لو قيل: قالوا وعملوا كذا، لإن فى الموصول إشارة إلى أن تفصيل المسند إليه وبيانه، مما لا تفى به عبارة، ولا يحيط به علم مخلوق، مؤكدة على أن الذين جاءوا بالإفك، وما توا به، تقوم أيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم بما عملوا من منكر. وعلى هذا فا لآية مسوقة لتقرير العذاب العظيم بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناية الرامين المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات... فالعبارة لا تكاد تحيط بتفصيل ما يقع فيه من العظائم، والكلام مسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يحويه، كأنه قيل (يوم تشهد عليهم ألسنتهم...) يظهر من الأحوال والأهوال ما لايحيط به نطاق المقال. على أن الموصول المذكور فى الآية عبارة عن جميع أعمالهم السيئة وجنايا تهم القبيحة، لا عن جناياتهم المعهودة فقط... والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل (بما كانوا يعملون) للدلالة على استمرارهم على هاتيك الأعمال فى الدنيا، وتجددها فيهم آناً فآناً، وتقديم (عليهم) على الفاعل للمسارعة إلى كون الشهادة ضارة لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر..... أ هـ)[3]. ولما كانت الإشارة فى قوله (أولئك مبرؤون مما يقولون.) تشير إلى من مسهم شئ من هذا الإفك، وهم الرسول (ﷺ) وعائشة، وأبوها، وصفوان، فهؤلاء برأهم الله من كل دنس، وسوء، وقول زائف، فجاء التعبير بالموصول (ما) ليعم كل دنس وسوء وقول زائف، وليدلك بنفى الريبة عن عائشة بأجلى وضوح، إذ يبين مبدأ مهماً من مبادئ الحياة الاجتماعية فى الإسلام، وهو أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع النفوس الخبيثة من مثلها، والنفوس الطيبة لاتمتزج إلا بمثلها، هذه حقيقة تنطوى عليها النفس الإنسانية وتشاهدونها كل حين فى حياة

١) سورة النور ٢٤
٢) سورة النور ٢٦
٣) روح المعانى ١٢٩/١٨، تفسير القرطبى ٢١١/١٢ بتصرف

الناس، فكيف تظنون بعد ذلك أنه من الممكن أن يعيش رجل طيب، تعرفون حياته من بدنها إلى آخرها، إلى سنوات طوال مع إمرأة زانية؟ يؤكد الله هذه النصيحة للمسلمين – فى هذا المقام – حتى إذا رمى فيها أحد بعد ذلك، فلا يصدقوا به لمجرد سماعه، بل عليهم الاحتياط والتبين، من الذى يرمى؟ وبم يرمى؟ وهل حقاً يصدق عليه ذلك الرمى؟[١]

قال تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ - فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ - لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**)[٢] جاءت هذه الآيات إثر تفصيل المولى – ﷻ – للزواجر عن الزنا، وعن رمى العفائف المحصنات، ليشرع فى تفصيل الزواجر عما عسى قد يؤدى إلى أحدها من مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن فى أوقات الخلوات، مؤثرة التعبير بالموصول وصلته (يا أيها الذين أمنوا...) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو: إقامة المؤمنين على أدب خاص، يتصل بالبيوت وحرمتها، حتى لا تكون مظنة لريبة، أو موضعاً لتهمة، وتأديبهم بآداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة، مع تعليمهم الآداب الجميلة، والأفاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين. والتعبير بالموصول أدل على تقرير هذا الغرض، مما لو عبر بغيره، لاشتمال الصلة على ما يفيد هذه الزيادة فى التقرير، لأن النفوس – إذ تستقبل هذه الآيات – مهيأة لقبول كل ما يدفع التهم، وينفى الريب، بعد تلك التجربة القاسية التى عاشها النبى (ﷺ) وزوجه، وصديقه، وصحابته، وصالحو المؤمنين. فضلاً عن تجاوبه مع سبب نزول الآيات، فقد روى الطبرانى وغيره عن عدى بن ثابت أن إمرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد،

١) تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى / ١٣٠

٢) سورة النور ٢٧-٢٩.

لا والد ولاولد، فيأتى الأب فيدخل على، وأنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى، وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع، فنزلت الآية معلمة المؤمنين عدم الدخول لبيوت غيرهم إلا بعد الاستئناس، وهو ما يبدو واضحاً فى استثمار أسلوب النهى (لا تدخلوا) مع اقترانه بالتنكير فى لفط (بيوتا) وهى المؤكدة على الشدة فى الأخذ بهذا الامر، فمقتضى الحديث – هنا – الإفصاح والقول: ياجماعة المؤمنين: طبيعة إيمانكم المرئية والثابتة لمن حولكم تحتم عليكم الالتزام بمقتضى هذا الامر، لأن عدم التجاوب معه والتقاعس عن تنفيذه يعرضكم لسلب أعظم صفة تلبستم بها وهى الإيمان، بل ويضعكم فى زمام من كان من العرب قبلكم، إذ كانوا يقتمحون بيوت الآخرين، دون علم مسبق، إذ يفجأ الزائر أهل البيت بغتة ودون توقع، مما يوقعهم فى حرج بالغ، – سيما – وهم فى هيئة لا يحبون أن يشاهدهم عليها أحد، ولذلك رأينا أصحاب الفطر المستقيمة، التى تلاقت مع القرآن وتعاليمه، تتوق إلى إصدار تشريع يوائم خبايا نفوسهم(١). وفى وصف البيوت بمغايرة بيوتهم فى (غير بيوتكم) خروج مخرج العادة، التى هى سكنى كل أحد فى ملكه، وإلا فالمستأجر والمستعير – أيضاً – منهيان عن الدخول بغير إذن(٢) لأن من نعم الله الواضحة بغير دليل تفضله، بجعل البيوت مأوى وسكن، تقر فيه نفوسنا، وتطمئن أرواحنا، بل وتهدأ أبداننا، ونأمن فيه على حرماتنا وعوراتنا، إذ لا نتقيد فيها بالقيود التى نلتزم بها حين نكون خارجها، أو نتخفف منها، وحين ندخلها نلقى عن كاهلنا أعباء الحذر، الذى يثقل النفس، والحرص الذى يرهقها.

ويأتى التعبير بقوله (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها...) ليكون حاجزا منيعاً ومؤصداً فى وجه كل من يريد استباحة الحرمات والعورات فى البيوت بدون إذن أهلها، فالتفريط فى الاستئذان والإيناس، يجعل أعين المفرطين تقع على عورات، وتلتقى بمفاتن تثير الشهوات، وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات السريعة، التى قد تتكرر، فتتحول إلى نظرات مقصودة،

---

١) تفسير ابن جرير الطبرى ٧٨/١٨ المطبعة الميمنية بمصر
٢) فى طلال القرآن ٨٩/١٨ مطبعة دار الشروق

تحركها الميول التى أيقظتها اللقاءات العابرة، على غير قصد ولا انتظار، وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات، أو إلى شهوات محرمة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات[1]، فالتعبير بـ (حتى) أباح الدخول لبيوت الآخرين، شريطة الإذن والاستئناس، وللتأكيد على أن تشريع الاستئذان لم يكن لمظنة انكشاف عورة البدن وفقط، بل إن هناك عورات غيرها، لا يجوز بحال من الأحوال استباحتها أو اقتحامها، كعورة الطعام والأثاث واللباس، وعورات المشاعر والانفعالات والعواطف وغيرها من الحالات النفسية. وعلى هذا فالمراد بالاستئناس– هنا – تلمس الحالة النفسية والرغبة الوجدانية لأصحاب البيت المزور، ومن ذلك: اختيار الوقت المناسب لهم، مع استخدام المسرة – مثلاً – لمعرفة مدى استعدادهم ورضاهم عن الزيارة من عدمه، وعلى هذا فالاستئناس أعم وأشمل من الاستئذان، لأن الأخيرة طلب الإذن بالدخول من عدمه، أما الاستئناس فهو: معرفة مدى التهيؤ واستعداد المزور وأنسه بالزائر[2].

ويأتى التعبير فى ختام الآية (والله بما تعملون عليم) مستثمراً التعبير بالموصول (ما) للتفخيم والتهويل من أمر المسند إليه وطبيعة ما يقدمونه، والتقرير للمسند وهو (علم الله) وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة، فالبيوت حرمات وعورات، وخبيئات البيوت عورات لها، والدخول من غير إذن قد يؤدى إلى الإطلاع على هذه العورات، كما أن للناس أسرارهم وأعذارهم، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقرير ظروفهم، وملابساتهم فى كل حين...)[3]. فضلا عن أن: التقرير للمسند وهو علم الله وإحاطته بما يقدمونه، يعد تحذيراً لمن تحدثهم أنفسهم بانتهاك حرمات الله، أو من لا يأتمرون بهذا الأمر، المأمورين به من قبل خالقهم، والذى أدبهم بأدبه، (ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير...)[4]. أما قوله تعالى (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون..)[5] جاءت هذه الآية لترفع الحرج

١) فى ظلال القران ١٨/٨٩ مطبعة دار الشروق
٢) تفسير القرطبى ١٢/٢١٣-٢١٤
٣) تفسير آيات الأحكام للسايس ٣/١٥٢ بتصرف
٤) سورة الملك / ١٤
٥) سورة النور / ٢٩

والإثم عند الدخول للبيوت غير المسكونة، وهى المباحة التى لا اختصاص لها بواحد دون غيره، والتى أعدت ليتمتع بها كل من يحتاج إليها، كارتياد الفنادق والنوادى والأماكن العامة، التى يستكن فيها من الحر والبرد، مع إيواء الأمتعة والرجال، أو التى يمارس فيها البيع والشراء، وقد آثر البيان القرآنى التعبير باسم الموصول (ما) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو علم الله الكامل وإحاطته الشاملة لكل ما نسر ونعلن، أو ما نضمره من حب الإطلاع على عورات الناس، أو من قصد ريبة أو فساد، فالتعبير بالموصول (ما) أدل على هذا الغرض من غيره من الأساليب، لاشتمال الصلة (تبدون، تكتمون) بصورته المستقبلية (المضارع) الدالة على استحضار صورتى الإبداء والكتم مع تجدد هيئتيهما، مع الجمع بين المتضادين (الإبداء والكتم) وما فيه من قيمة جمالية، يضفيها على العبارة، فالجمع بينهما على اختلاف معنيهما فيه نوع من الحضور الذهنى للمخاطب، يدفعه إلى استحضار صورة الإبداء والكتم أمام علم الله غير المتناهى. وهذا الاستحضار يدفع إلى جو من الرهبة والرغبة، يؤدى بالمسلم إلى سرعة الاستجابة لما سبق فى عدم ارتياد غير هذه البيوت لأنها السبب الرئيس فى النجاة من العذاب والوعيد والتهديد – على ما يفيد هذا الغرض ويقرره ويؤكده.

قال تعالى (**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)(١) جاءت هذه الآية عقيب الآيات التى حثت على الزواج، ونظراً لما يحمله الزواج فى إهابه من وقاية وحصانة وتعفف، وتلك معينات على الاستجابة لكل ما أمر الله به من تشريعات وأحكام فى الآيات السابقة. ولما كان تعطيل هذا الناموس الإلهى، مظنة انتشار دواعى الفساد، والاعتداء على الفروج وتصيد

١) سورة النور / ٣٣

الشهوات والتقاطها من كل وجه لا نعدام أسبابه المعينة عليه، لذا جاءت هذه الآية لتكون سياجاً منيعاً من إتيان الشهوات، والبعد عن أسباب الفتنة والإثارة، بالبحث عن العفة، والتمسك بأسبابها فى قوله (وليستعفف الذين لا يجدون...... مستثمرة التعبير بالموصول لأكثر من مرة (الذين لا يجدون نكاحاً.... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم.... وآتوهم من مال الله الذى آتاكم.... ومن يكرهن....) تأكيداً على زيادة تقرير المسند فى الآية، وهو العفاف، والتمسك بأسبابه ودواعيه كشغل الذهن بعمل نافع مثل تلاوة القرآن الكريم والبحث العلمى، ما دمتم تائقين عاجزين عن مبادئ النكاح وأسبابه، فالعفة ودواعيها هى أحرى الوسائل المطلوب منكم التمسك بها مادام هذا وصفكم الملابس لكم (لا يجدون... يبتغون الكتاب...) ويصح أن يكون لتعريف المسند إليه بالموصولية غرض آخر، ألا وهو: تنبيه المخاطبين على وقوع الخطأ من غيرهم، ويتضح ذلك بالنظر إلى مضمون الآية، فالذين لايجدون، والذين يبتغون، مطلوب منهم العفة، لكنه يحمل فى طياته أمراً آخر، هو وقوع المسئولية كلها على أفراد المجتمع ممن يملكون القدرة على تيسير أمور هؤلاء، باعتبارهم – المتحدث عنهم فى الآية – بشر مثلكم، فيهم رغبة وشهوة، وأنه لا سبيل إلى الحفاظ على أمنكم واستقراركم إلا بمد يد العون لهؤلاء، ومساعدتهم على توجيه هذه النزعات والرغبات توجيهاً سديداً، لإنها لو لم توجه إلى الحلال بالزواج وغيره، فلا يكون أمامها إلا الحرام، لهذا، فالأحرى بكل من فى رعيته فتى أوفتاة، أن يرعى الله فيهما، وألا يدعهما هملا، يمارسون الفاحشة، كما تمارسها الحيوانات، وأن يحفظ إنسانيتهم، ويرفع قدرهم بالزواج وأن ينقلهم من دائرة الحيوان إلى عالم الإنسان، فهم جزء من المجتمع الإنسانى، وفى فسادهم فساد للمجتمع، ومنهم تصل العدوى إلى غيرهم. أرأيت كيف ساعد الموصول على بيان المعنى وإيضاحه أيما بيان. أما قوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم...) فالتعبير بالموصول (الذى..) لزيادة التقرير فى الغرض المسوق له الكلام، وهو أن المال مال الله، وما أنتم إلا مستخلفون، فهو أمر لهم بالإنفاق عليهم، بعد الأداء والعتق. وفى إضافة المال إليه تعالى، ووصفه بإيتائه (تعالى) إياهم للحث على الامتثال بتحقيق المأمور به، فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته (سبحانه) مع

كونه (عز وجل) هو المالك الحقيقى له من أقوى الدواعى إلى صرفه فى الجهة المأمور بها، وهو ما نلحظه واضحاً فى تعامل الإسلام مع الرق حين وجده ظاهرة إجتماعية سائدة، إذ فتح باب التشجيع والحث على تحرير الأرقاء، بجعل عتق الرقبة كفارة كثير من الأشياء، مثل: كفارة اليمين، والظهار، والفطر فى رمضان، فضلاً عن جعله عتق الرقبة تقرباً إلى الله، قال تعالى (فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة...)[١].

ويأتى ختام الآية (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم...) والآية دعوة إلى مالكى رقاب هؤلاء الإماء بتزويجهن، إذ رغبن فى الزواج، ليتحصن به، وليحفظن فروجهن، فهذه الإرادة (إن أردن...) منهن للتحصن بالزواج، دليل واضح على صلاحهن، وسلامة إيمانهن، وأنهن يرغبن البعد عن الحياة الطليقة، التى يعيش فيها الإماء، مستباحات الإعراض. ويأتى التعبير بالموصول (من) بعموميته دلالة على عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة، فالمخاطب لا يعلم عن مالكى الرقاب إلا صفة واحدة هى صفة (الإكراه) من هنا آثر الموصول (من) لمساعدته فى معرفة أحوال المسند إليه، وبالتالى يستطيع الحكم عليه، وفى هذا تصوير لبشاعة ما كان عليه أسيادهن من ضلال مبين، إذ لا يفعله إلا من سحقت كرامته، وانمحقت نخوة الرجولة وعزتها فى صدره، فكيف كان يسعى ذلك المكره أن يكون فى قومه الرئيس؟ وكيف كان لقومه الرضا به سلطانا عليهم؟ وفى هذا تصوير لخطل الاختيار البشرى لمنهج الحياة بعيداً عن هدى الله – عز وجل، فضلاً عن تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو تقرير نزاهة وعفة الإماء بتحقيق رغباتهم فى الإعفاف والتحصن، فضلا عن: زيادة التشنيع والتقبيح لأفعال مالكى الرقاب، حيث كانوا يمنعون الإماء من الزواج، الذى يتحصن به، ويتعففن عن الفاحشة بسببه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، وقصورهن عن معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطى القبائح. وبالتالى لم يكن أمامها إلا أن تعرض نفسها للرجال، وهذا هو البغاء الذى يكرهها مالكها عليه بوقوفه فى وجه الزواج،

---

١) تفسير آيات الاحكام للسايس ٣/١٧٥، وسورة البلد / ١٣ – ١٥

وفيه من الزيادة لتقبيح حالهم، فإن من له أدنى مروءة لايكاد يرضى بفجور من يحويه من إماء، وإيثار كلمة (إن) على (إذا) لإن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر، وللإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك، فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع؟[١].

فإذا أدركنا مدى المفارقة بين الإكراه منهم، وإرادة التحصن منهن، علمنا هول ما سقطوا فيه، وهو بالغ فى التشنيع عليهم والتفخيم لفعلتهم الشوهاء، وعلمنا – أيضا – أن القيد الشرطى لا مفهوم مخالفة له، وأن النهى – هنا – قد سلط على أشنع صور الفعل وأركسها. كيما تقلع الأمارة بالسوء عنه، ولعله من سنة البيان القرآنى الذهاب فى مثل هذا السبيل، حين يكون المنهى عنه موغلاً فيهم، وحين تستمسك به أهواؤهم، فيسعى البيان القرآنى إلى إزعاجها وزعزعتها عما هى فيه من رجس، فيصور لها أفعالها فى أبشع صورها، فينهاها عنه بغية الوصول بها إلى الإقلاع عن الفعل كله، وذلك مسلك من مسالك التربية والهداية والإبانة.

فالشرط فى هذه الآية جاء مصوراً للواقع زمن النزول تصويراً ذا وظيفة تربوية بالغة، وهو ما يتلاءم وسبب نزول الآية، وسواء كان هذا الواقع قليلاً فيهم باعتبار مجموعهم، أو كان غالباً على بعضهم، فإن الشرط على صورتيه: تصوير الوقع أو الخروج مخرج الغالب لا مفهوم مخالفة له[٢].

قال تعالى (**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**)[٣] هذه الآية كلام مستأنف جئ به فى تضاعيف ماورد من الآيات السابقة واللاحقة، لبيان جلالة شئونها المستوجبة للإقبال الكلى على العمل بمضمونها، وصدر بالقسم، لإبراز كمال العناية بشأنه، فهى آيات بينات لكل مالكم حاجة إلى بيانه من الحدود والآداب، وجاء التعبير بالموصول (الذين...) زيادة فى تقرير المسند وهو (نزول الآيات الواضحات والمتضمنة

١) روح المعانى ١٥٧/١٨، والجامع لأحكام القرآن ٢٥٤/١٢ بتصرف.
٢) تفسير المراغى ١٠٦/١٨، والتفسير القرآنى ١٢٧٩/١٨
٣) سورة النور /٣٤

للأحكام الخاصة بحرمة الفروج، وحين انتهت هذه الآيات من بيان الأحكام ذكرهم بتحقيق الخبر الذى أعلنته بداية السورة، وطلب منهم التحقق من هذا الوصف (البينات المفصلات) ليكون لهم منه عبرة وعظة. وقد يكون السر فى التعبير بالموصول (الذين) عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة، وهو ما يبدو فى المثل المضروب الكائن من قبل أمثال الماضين من قبلكم من القصص العجيبة فينتظم قصة عائشة (ﷺ) المحاكية لقصة يوسف ومريم (عليهما السلام) حيث أسند إليها مثل ما أسند إلى عائشة من الإفك، فبرأهما الله (تعالى) منه[1].

قال تعالى (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)[2] لما كان الكيان البشرى عاجزاً عن إدراك ماهية النور القدسى، قربه الله فى صورة حسية مصغرة، يبصرها الإنسان، ويدرك كنهها، ويعلم حدها ومداها، فى صورة مثل يقربه إلى العقول، ويدنيه من المدارك والتصورات، ويخرجه من عالم ما وراء الحس إلى عالم الحس، وإلا فإن هذا النور فى ذاته – لا يمكن تصوره حقيقة أو خيالاً، لأنه من صفات الله، وكما لا تدرك ذات الله، فكذلك لا تدرك صفاته.

ولما كان النور المصطنع فى حياتنا، بالإضافة إلى النور الإلهى ظلاماً، ولما كان نور الله الذى يملأ الوجود، هو نفحة من النور العلوى، وأن هذه النفحة مظنة الوجود فى كل موجود على وجه الأرض فهى هداية عامة وليست خاصة، عمد البيان القرآنى لإيثار التعبير بالموصول (من يشاء) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو هداية الله بنوره لمن تشاؤه ذاته العلية، وإيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته – تعالى – وأن إظهار الأسباب بدونها

---

١) أحكام القرآن لابن العربى ١٣٨٦/٣، وتفسير أبى السعود ١٧٣/٦، والفتوحات ١٧٣/٦
٢) سورة النور / ٣٥

بمعزل عن الإفضاء إلى المطالب، فهى هداية خاصة مقيدة بمشيئته – تعالى – موصلة إلى المطلوب حتماً، لذلك النور المتضاعف، العظيم الشأن، يؤكد هذا التقييد – لتلك الهداية المؤطرة بإرادته لمن يشاء من عباده، – الإظهار فى مقام الإضمار (يهدى الله لنوره) زيادة فى تقريره وتأكيداً لفخامته الذاتية بفخامته الإضافية، الناشئة من إضافته إلى ضميره – ﷻ، فضلاً عن: إظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار فى (ويضرب الله الأمثال للناس) للإيذان باختلاف ما أسند إليه – تعالى – من الهداية الخاصة، وضرب الأمثال الذى هو من قبيل الهداية العامة، كما يفصح عنه تعليق الأولى (الهداية) لمن شاء، والثانية (ضرب الأمثال) بالناس كافة، فضرب الأمثال له دخل عظيم فى التوعية والإرشاد، لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس، وتصوير لأوابد المعانى بصورة المأنوس، فهى دلالة ثانية، تضاف للسابقة فى التأكيد على: أن مناط الهداية وملاكها ليس إلا مشيئة المولى – جل فى علاه – وأن إظهار الأسباب بدون هذه المشيئة، يكون عائقاً من العوائق المنيعة عن الإفضاء إلى المطالب(١).

فالتعبير بالموصول أدل على هذه الفوائد جميعها، فهو بمشيئته – تعالى – يوفقهم لفهم وجوه دلالة الأدلة العقلية والسمعية، التى نور بها السموات والأراضين على وجه ينتفعون به، أو يهديهم لفهم ما فى القرآن من دلائل أحقيته، وكونه من عنده – ﷻ – من الإعجاز والإخبار عن الغيب... وغير ذلك من موجبات الإيمان به.

قال تعالى **(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)**(٢) هذه الآية استئناف لبيان من حصلت لهم الهداية لذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والقالبية، فى معرض الحديث عن بعض صفات هؤلاء الذين شملهم النور القدسى، كإتقان الأعمال مثلاً، والترفع عن

---

١) روح المعانى للألوسى ١٧٣/١٨، والكشاف للزمخشرى ٦٨/٣، وتفسير القاسمى ٢٥/١٢ – ٤٠ بتصرف يسير

٢) سورة النور /٣٨

الدنايا، حيث لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، فكان الجزاء من جنس العمل، ولما كان الهدف هو: بيان ما أعده الله للمحسنين، عمد البيان القرآنى للتعبير بالموصول (ما) لإن فى إبهامها تفخيماً وتهويلاً، لا يفى به التصريح، فيما لو قيل: يجزيهم الحسنة مثلا بكذا، لإن فى الموصول إشارة إلى أن تفصيل المسند إليه (أحسن ما عملوا) وبيانه، مما لا تفى به عبارة، ولا يحيط به علم مخلوق، وهو ما يبدو فى تفضله عليهم بأشياء لم توعد بخصوصياتها أو بمقاديرها، ولم يخطر ببالهم كيفياتها ولاكمياتها، إنما وعدت بطريق الإجمال فى مثل قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله (ﷺ) حكاية عن ربه (أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) إلى غير ذلك من المواعيد الكريمة، التى من جملتها قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم بأنه (تعالى) يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات، مما لا يفى به الحساب، والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة، ووضعه موضع ضميرهم، للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته – تعالى – لا أعمالهم المحكية، كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره – عز وجل – وللإيذان بأنهم ممن شاء الله – تعالى – أن يرزقهم، كما أنهم ممن شاء – سبحانه – أن يهديهم لنوره، حسبما يعرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة، فإن جميعها من أثار تلك الهداية(١).

قال تعالى (**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**)(٢) لما أفادت الآية السابقة ضرورة أمر المنافقين بالطاعة كفاحاً، وعدم خوف مضرتهم، أكد بأنه (ﷺ) هو الغالب ومن معه، فأنى

١) روح المعانى للألوسى ١٧٩/١٨
٢) سورة النور /٥٥

للخوف مجال؟! وقيل: إنه استئناف مقرر لما فى قوله تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا..) من الوعد الكريم معرب عنه بطريق التصريح، ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التى هى من آثار الاهتداء، ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التى نيط بها الاهتداء، ولهذا عمد لإيثار التعبير بالموصول – هنا – زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام تأكيداً، لاشتمال الصلة (آمنوا وعملوا الصالحات) على مايفيد هذه الزيادة فى التقرير، وهى تعجيل مسرة المخاطبين، حيث إن الآية مساقة لذلك، وتأكيد ما يفيده الكلام السابق من نفى المضرة على أبلغ وجه، مع بيان مالهم فى العاجل من الاستخلاف وما يترتب عليه، وفى الآجل ما لايقادر قدره على ما أدمجه – سبحانه – فى قوله تعالى (لعلكم ترحمون). ويصح أن يكون للتعبير بالموصول سر آخر هو: عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة، فالمخاطب لا يعلم شيئاً عن ذات المسند إليه سوى صلته المطروحة فى الآية – من إيمان وعمل صالح – فيأتى التعريف بالموصولية لمساعدة المخاطب فى معرفة أحواله والحكم عليه بعد ذلك، وعلى هذا: فالمراد بالذين آمنوا، كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أى طائفة كان، وفى أى وقت كان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة – فحسب – ضرورة عموم الوعد الكريم، ولأجل توضيح هذا المعنى، كان توسيط الجار والمجرور (منكم) لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم، وأهم ما يجب عليهم، وللدلالة على أنه الأصل فى الاستخلاف والتمكين(١)، ما دام هو الدين المرضى عنه من قبل الرب – عز وجل – وهو ما بات واضحاً فى (ليستخلفنهم... وليمكنن...) فأصل التمكين: جعل الشئ مكاناً لآخر، بحيث يجعل هذا الدين مقرراً ثابتاً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه فى كل ما يأتون ويذرون، هذا من جانبهم، أما عن طريق التمكين من ربهم، فهو بأن يعلى – سبحانه – شأنه، ويقوى بتأييده – تعالى – أركانه، ويعظم أهله فى نفوس أعدائهم الذين

---

١) روح المعانى ٢٠٢/١٨ بتصرف يسير

يستغرقون الليل والنهار فى التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرجل والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث ييأسون من التجمع لتفريقهم عنه، ليذهب من البين، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه، ليعود أثراً بعد عين. ومما يؤكد هذه المعانى السابقة: تقديم الجار والمجرور فى قوله (وليمكنن لهم دينهم) على مفعوله الصريح، للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم، مع التشويق إلى المؤخر، وفى إضافة الدين (دينهم) إليهم ثم وصفه بارتضائه لهم فيه من مزيد الترغيب ما فيه والتثبيت عليه(١).

قال تعالى (**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)(٢) هذه الآية بيان لمآل الكفرة فى الدنيا والآخرة، بعد بيان تناهيهم فى الفسق وفوز أضدادهم بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين، وفى التعبير بالموصول (الذين كفروا..) رفع استبعاد تحقق الوعد السابق (الاستخلاف والتمكين) مع كثرة عدد الكفرة وعددهم، والخطاب لكل ما يتأتى منه الحسبان، نظير ما فى قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا) وجوز أن يكون للرسول – ﷺ – على سبيل التعريض بمن صدر منه، وعلى هذا يكون السر فى التعبير بالموصول هو: تنبيه المخاطبين على خطأ وقع من غيرهم، إشارة إلى أن الحسبان المذكور بالغ فى القبح والمحذورية إلى حيث ينهى من يمتنع صدوره منه، فكيف بمن يمكن ذلك منه كما قيل فى قوله تعالى (فلا تكونن من المشركين..) وقد يكون الغرض من التعبير بالموصول هو قصد الإيماء إلى وجه بناء الخبر، أى الإشارة إلى نوع الخبر المراد إسناده إلى المسند إليه المعبر عنه باسم الموصول من حيث كونه عقاباً، وقصداً لإشعار السامع بنوع الخبر قبل النطق به، فيكون المعنى: لا تحسبنهم معجزين الله – تعالى – عن إدراكهم وهلاكهم فى قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا منها كل مهرب، فمأواهم النار وبئس المصير.

---

١) روح المعانى ٢٠٣/١٨

٢) سورة النور / ٥٧

قال تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)[1] الإسلام منهج الحياة الكامل الذى ينظم حركة حياة الإنسان فى كل أطوارها ومراحلها بحركاتها وسكناتها، ولكى يقوم الإنسان بمهمته المناطة به وهى خلافة الله فى أرضه، امتن الله عليه بجعل البيوت له سكناً، وجعل له أوقاتاً يتهيأ فيها للراحة ويخلد فيها للنوم، مع بيان آداب المخالطة والاستئذان، فيكون ذلك باعثاً قوياً على الخروج إلى الحياة وممارستها فى قوة ونشاط وداعياً إلى القيام بمهمته على الوجه الأكمل، وفى سبيل ذلك استثمر البيان القرآنى التعبير بالموصول (الذين آمنوا....) بياناً للصفة الظاهرة فيهم مع من يلوونهم من العبيد والصبيان، والذين يسألون عنهم وعن زرع الأدب فى نفوسهم منذ نعومة أظفارهم، مصداقاً لقوله (ﷺ) كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...)[2] فوصفكم الإيمانى والمتغلغل فيكم يحتم عليكم تعليم أولادكم ومن تسألون عنهم أدب المخالطة والمعاشرة فى المجتمع الإسلامى، وعلى هذا يكون السر فى التعبير بالموصول هو: عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى صلته، فإيمانهم هو أعلى مرتبة عرفوا بها فلذلك خوطبوا بها، أما ما عداها من الأحوال فربما لا يكون متفشياً فيهم تفشى هذه الصفة، وظاهر الخطاب يوحى بأن المراد به الرجال دون النساء، لكن الصحيح توجيهه للأثنين معاً، لأن الإنسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله، فقد يكره – أيضاً – إطلاع النساء عليها، وإذا كان حفظ العورة فى الرجل مطلوباً، فإنه فى النساء آكد، إذ الفتنة بهن أعظم، يقول الإمام الرازى (المراد به الرجال والنساء لأن التذكير يغلب على التأنيث... والأولى عندى: أن الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى، وذلك لأن النساء فى

---

١) سورة النور / ٥٨

٢) صحيح رواه البخارى فى الاستقراض ٢٤٠٩، ورواه مسلم فى الإمارة ١٨٢٩

باب حفظ العورة أشد حالاً من الرجال، فثبوت هذا الحكم للنساء بطريق الأولى، كما أنا نثبت حرمة الضرب بالقياس الجلى على حرمة التأفيف)[١]. أما قوله تعالى (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم) فالسر فى التعبير بالموصول فيه هو تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو ستر العورات وسد ذرائع الفتن وحفظ الحياء بتعليم الصبيان ومماليك المدخول عليهم أداب الاستئذان ما دامت هناك أوقات يتخفف فيها الإنسان من ملابسه، ومن تحفظه فى ستر عورته طالما – أنه يشعر بأنه فى خلوة فى نفسه، أو مع زوجه، وفى التعبير بالموصول بياناً لتلك المعانى مع هؤلاء الذين لا نحتشم لهم ولا نتحرج كثيراً منهم.

وقد يكون السر فى إيثار الموصول هو تنبيه المخاطبين على خطأ ربما يقع من المميزين من صغارهم ومماليكهم، لهذا جاء الأمر للبالغين من المذكورين على الحقيقة، ولغيرهم على وجه التأديب، فالأمر بالاستئذان فيها مرهون بتحقق أو ظن كون أهل البيت على حال يكرهون اطلاع المماليك والمراهقين من المرور عليها كانكشاف عورة أحدهم ومعاشرته لزوجته، فحينئذ ينبغى الاستئذان، أما نفى الجناح بعدها فبناءاً على العادة الغالبة من كون أهل البيت فى الأوقات الثلاثة المذكورة على حال يقتضى الاستئذان، وكونهم على حال لا يقتضيه فى غيرها)[٢]

وهو ما يتلاءم بطبعه – فى ظنى – مع سبب النزول، تفاعلاً مع واقعية أفراد المجتمع الإيمانى، فقد ذكر القرطبى فى تفسيره: (أن رسول الله – ﷺ – بعث غلاما من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب ظهيرة ليدعوه، فوجده نائماً قد أغلق بابه فدق عليه ثم دخل، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شئ، فقال عمر: وددت أن ينهى الله ابناءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه

١) التفسير الكبير للفخر الرازى المجلد ١٢ الجزء ٢٤ ص٢٥، والمراد به قوله تعالى (فلا تقل لهما أف...)

٢) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ٢١٤/١٨

الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله – ﷺ – فوجد هذه الآية قد أنزلت، فخر ساجداً شكراً لله تعالى...)[1].

قال تعالى (**وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)[2] لما بين سبحانه – آنفاً – حكم الأطفال وعدم احتياجهم للأستئذان فى غير الأوقات الثلاثة عقب سبحانه ببيان حالهم إذا تجاوزوا الطفولة إلى البلوغ، دفعاً لما عسى أن يتوهم، فهم وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخول، من هنا أثر التعبير بالموصول (الذين من قبلهم..) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو: شيوع هذا الأدب الرفيع، الذى يضفى على أتباعه ستراً جميلاً من التصون، والتعفف والحياء، بهذه الحواجز التى لا تشف عما وراءها من عورات، فضلاً على إيقاظ مشاعر الحياء والعفاف فى أرباب هذا المجتمع وكيانه، حتى يظل ماء الحياء سارياً فى كيانهم تتغذى منه مشاعرهم، وتسمو به إنسانيتهم، وذلك كله لا يتحقق إلا فى رحاب مجتمع إيمانى كملت إنسانيته، ورقت مشاعره، فعرف لنفسه قدرها، ولكرامته حقها.

واللام فى الأطفال للعهد إشارة إلى الذين لم يبلغوا الحلم، المجعولين قسيماً للمماليك، فالطفولة هى التى قضت بإعفاء هؤلاء من الاستئذان فى غير الأوقات الثلاثة، فإذا زايلتهم هذه الصفة ودخلوا مدخل البالغين، أخذوا بحكمهم، وأصبح الاستئذان واجباً فى حقهم فى جميع الأوقات، لافى هذه الثلاثة فحسب، يؤكد ذلك التعقيب بالتشبيه الذى بين كيفية استئذان هؤلاء، مع زيادة إيضاحه ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع، وعلى هذا فالمعنى: فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا فى جميع الأوقات، ويوجب عليهم الرجوع إن طلب منهم ذلك حسبما فصل فيما سلف[3].

---

١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣٠٤/١٢، وأسبا النزول للواحدى / ٢٤٨
٢) سورة النور / ٥٩
٣) روح المعانى ٢١٦/١٨

وبناءاً على ما سبق بيانه يمكن أن يكون السر فى التعبير بالموصول هو الإيماء إلى تعظيم شأن هذا الخبر ورفع مكانته، نظراً للأثر المرجو من وراء شيوعه وانتشاره من ستر العورات، وحفظ الحياء، وسد منابع الفتن بدرء منابعها كالاستئذان الذى هو طريق من طرق حفظ المجتمعات والسمو بأهلها إلى أعلى عليين.

قال تعالى (**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)[١].

ولما كانت نظرة الإسلام فى تشريع أحكامه: الأخذ بأيدى الناس إلى طريق العفة، إذ لا يتحقق إلا بالحيلولة بين المثيرات وبين النفوس، فضلاً عن تقليل فرص الغواية، آثر البيان القرآنى التعبير بالموصول (اللاتى لا يرجون..) إيماءاً إلى صفة بارزة فى المتحدث عنهن، ألا وهى: قعودهن عن الاستمتاع حيث وصلن إلى درجة من الكبر يستحيل معها تسنم ذرى الشهوة أو دواعيها، فقد أيسن، فلم يبق لهن مطمع فى الأزواج، لبلوغهن صفة كاشفة، وبالتالى فلا إربة لهن فى الرجال، ولا أرب للرجال فيهن، هن أشبه بالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فالمخاطب لا يعلم عن المتحدث عنهن شيئا سوى هذه الصلة الموضحة لهن، والتى أصبحت ديدنهن اللازب، وبالتالى فحكمه عليهن لا يكون إلى من جانب هذه المعرفة المنبعثة من الموصول وصلته، هذه الصفة هى الداعية إلى التسامح معهن فى خروجهن بصفة استثنائية من عموم ما أخذت به النساء فى قوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن...)[٢] وعلى هذا يكون الغرض من التعبير بالموصول – هنا – عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة.

---

١) سورة النور / ٦٠

٢) سورة النور / ٣١

وقد تندرج الآية تحت غرض آخر، ألا وهو: الإيماء إلى وجه بناء الخبر، مع تقرير المسند، ويتحقق ذلك بالنظر إلى التعفف وعدم التبرج – باعتبارها قيمة من قيم الإسلام الأصلية، وبالتالى فهما طبيعة متأصلة من طبائع المرأة الحرة، أياً كانت السن التى بلغتها، ثم هما من زينة المرأة التى تتحلى بها، وما أجملها من زينة؟! بل من أدبها الإيمانى اللذين تعيش بهما فى كيان مجتمعها الإسلامى، إذا تدبرنا ذلك، علمنا أن التخفيف ورفع الحرج عن المرأة رخصة من الله ورحمة بها. يضعها فى يدها، لتستعملها فى إطارها المنوط بها– حسبما أراد لها خالقها، بعقل وحكمة ودين وتريث، من هنا جاء التعبير بالموصول تأكيداً على هذا الغرض، وكأن الأصل فى المعنى: القواعد من النساء لا زينة لهن فيتبرجن بها، لأن الكلام فيمن هن بهذه المثابة (لا يرجون نكاحاً) وكأن الغرض استعفاف هؤلاء عن وضع الثياب – مع إباحة وضعه – خير لهن، فما ظنك بذوات الزينة من الشواب، وأبلغ ما فى ذلك جعله عدم وضع الثياب فى حق القواعد من الاستعفاف إيذاناً بأن وضع الثياب لا مدخل له فى العفة، هذا فى القواعد، فكيف بالكواعب(١)؟!

قال تعالى (**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)(٢) كان المسلمون يذهبون مع رسول الله – ﷺ – فى حروبهم، فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب نفس، وإنما نحن

---

١) فى ظلال القرآن ١٨/١٩٥، وتفسير آيات الأحكام للسايس ٣/١٨٧، والتفسير القرآنى ١٨/١٣٢٣-١٣٢٤ بتصرف.

٢) سورة النور / ٦١

أمناء، فأنزل الله (أوما ملكتم مفاتحه...) لتحكم العلاقة بين المسلمين عند دخول البيوت، ولما كان هذا الاختلاط والتزاور فيما بينهم، يضعهم فى أحوال يشهدون فيها طعاماً بين يدى أهل البيت الذى دخلوا إليه مستأذنين، فقد كان من تمام الحكمة بيان موقف الشريعة إزاء هذا الطعام الممدود، وهل هناك حرج أو إثم شرعى على من حضره إذا تناول منه، وربما يقع فى شعور أهل المنزل أنه جاء يطلب الطعام ويرصد وقته، وقد يكون الزائر فى حالة تستدعى الأكل من هذا الطعام وتشتهيه نفسه، لكنه يتحرج الأكل منه.

من هنا جاءت الآية الكريمة لرفع هذا الحرج، مؤثرة التعبير بالموصول (ما) فى قوله (أوما ملكتم مفاتحه...) مبينة نوعاً من الأنواع التى يرفع عنها الحرج بعد رفعه عن الأصناف السابقة من العجزة والزمنى والأهل والأقارب، بهدف الإيماء إلى وجه بناء الخبر، ألا وهو رفع الحرج عن تناول الطعام مع أصحاب العجز، والأقارب تبعاً لهم فى ذلك، فلو كان هناك شيئا ما من الحرج مع الإذن بالأكل، فإن الإسلام قد تجاوز عنه، تخفيفا ورحمة، إذ كان المقام مقام رحمة عامة تنال البعيد، ولا يحرم منها القريب كما عددته الآية، ونظراً لما يكون فى الصلة (ملكتم مفاتحه...) من مناسبة للخبر تشعر بنوعه وطريق إسناده إلى الموصول قبل النطق به.

وقد يكون السر فى إيثار الموصول (ما) التفخيم والشمول والتعميم، نظراً لما به من إبهام وغموض لا يفى به التصريح، ولا يحيط به علم مخلوق – يشعر بهذا التعميم، لكل ما كان تحت يده أو تصرفه من بستان أو ماشية وكالة أو حفظاً، فملك المفتاح كناية عن كون(1) الشيئ تحت يد الشخص وتصرفه، فيدخل فيهم كل الذين فى أيديهم مفاتيح غيرهم، كالوكلاء والأوصياء، وغيرهم ممن يتولى شئون غيره، وحفظ أمتعته وأمواله، فهؤلاء لهم أن يأكلوا وبدون حرج – مما تحت أيديهم، بالمعروف ومن غير سرف، ما داموا فى حاجة إلى هذا الذى يأكلونه، كما يقول سبحانه (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل

1) الجامع لأحكام القرآن ٣١٢-٣١٤، وفى ظلال القرآن ٢٥٣٣/٤

بالمعروف...)[١] هذه الأحوال والمشاعر المختلطة بين الزائر والمزور احتواها التعبير بالموصول فى شموله وعمومه، تصحيحاً لهذه المشاعر وإقامتها على ميزان حكيم عادل.

قال تعالى (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)[٢] هذه الآية استئناف جئ به فى أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها وتأكيداً على وجوب مراعاتها وتكميلاً لها ببيان بعض آخر من جنسها، وفى تقييد الإيمان بالله تعالى ورسوله – ﷺ – وجعلهما صلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ مع تضمنه له قطعاً، تقريراً لما قبله وهو بيان أدب الاستئذان عند دخول البيوت، أما هنا فمهمتها بيان أدب الاستئذان عند الخروج والانصراف، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأن صدقهم مع الله ورسوله، وجعلهم أصل وقتهم وأعمالهم لدين الله، – هى صفتهم الأصلية، وإيذاناً بأن هذه المؤهلات حقيقة وجديرة بأن تجعل قرينة للإيمان المذكور منتظمة فى مسلكه، فضلاً عن: الإيماء بتعظيم شأن المخبر عنهم، وتهوين أمر غيرهم، ممن خالفوا هذه الطبيعة الإيمانية، وعلى هذا فالمعنى المراد: إنما الكاملون فى الإيمان الحقيقى، هم المؤمنون بالله ورسوله، من صميم قلوبهم، والمطيعين لهما فى جميع أحكامهما، التى من جملتها: ما فصل من قبل من الأحكام المتعلقة بعامة أحوالهم، المطردة فى الوقوع، وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق، كما إذا كانوا مع نبيهم – ﷺ – على أمرمهم يجب اجتماعهم فى شأنه، إذ يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء، فلم يكن لأحد منهم أن يذهب بشأن من شئونه، إلا بإذن.

---

١) سورة النساء / ٦

٢) سورة النور / ٦٢

وهكذا يؤتى بالمسند إليه معرفاً بالموصولية، إشارة إلى نوع الخبر المراد إسناده إليه، أو الحكم به عليه، فيفطن المخاطب من فاتحة الكلام إلى ما تدل عليه خاتمته(١).

وقد يكون السر فى إيثار الموصول: تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهى: بيان الغاية والهدف من وراء تعظيم شأن المتحدث عنهم بتعداد صفاتهم، فالغاية هى الإذن الحاصل للمؤمنين من رسولهم – ﷺ – بعد الاستئذان، والاقتصار – هنا – على الاستئذان، لأنه الفعل الواقع منهم، والمميز لهم دون من عداهم، فهو المعتبر فى كمال الإيمان، لا الأذن، ولا الذهاب المترتب عليه، والسبب الرئيس فى اعتباره – هنا – لما أنه كالمصداق لصحته، والمميز للمخلص عن المنافق، فإن الأخير ديدنه التسلل للفرار، ولبيان أن الذهاب بغير إذنه – ﷺ – فيه من الجناية ما فيه.

وهو ما أكده التعبير بالموصول فى قوله (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون) فقد جعل فيه – أيضاً – المستأذنين هم المؤمنون عكس الأول، دلالة على أنهما متعا كسان ومتغايران سواء بسواء، ومنه يلزم أنه كالمصداق لصحة الإيمانين، وكذلك من اسم الاشارة لدلالته على استئهال الإيمانين لذلك، فليس طلب الإذن من النبى – ﷺ – لذوى الأعذار، مما يحظر عليهم وحالتهم تلك، فالإسلام يسر لاعسر، وهو – ﷺ – خير من يقدر حال المستأذن وأمره

---

١) يؤكد ذلك: الحصر فى إنما والمفيد مجئ إنما لقصر الإفراد، وهذا مخالف لما ذهب إليه عبد القاهر الجرجانى من جعل (إنما) مثل (لا) العاطفة فى أنها لنفى ما وجب للأول عن الثانى، لا لنفى أن يكون الثانى شريكاً للأول، فإذا قلت (إنما جاءنى زيد) لم يكن غرضك أن تنفى أن يكون جاء مع زيد غيره، ولكن أن تنفى أن يكون المجئ الذى قلت به، أنه كان منه مجئ من عمرو، وأن ذلك هو الذى يسبق إلى القلب من المعانى، والاعتبار به إذا أطلق ولم يقيد بـ (وحده) وما فى معناه، فإن أريد منها الدلالة على الإفراد، ونفى الاشتراك، كان ذلك كالتكلف... أ. هـ (دلائل الإعجاز / ٢٢٩-٢٣٠) وما قاله عبد القاهر لا يتناسق مع دلالة (إنما المؤمنون الذين آمنوا...) فى مساقه الوارد فيه، فإن لسياقه سلطاناً فوق سلطان ما قرر الإمام، بل سلطان دلالته أقوى من سلطان دلالة (وحده) التى اعتد بها الإمام فى دلالة إنما على الإفراد.

المهم وخطبه الملم، لذا عبر بالموصول وصلته فى قوله (فأذن لمن شئت منهم..) تقريراً للغرض المسوق له الآية وهو: تفويض الأمر بالإذن وخضوعه لرأيه ومشيئته – ﷺ– فطلب الإذن ليس معناه إجابة هذا الطلب، بل إن ذلك يرجع بالضرورة، وفى المقام الأول، للنبى – ﷺ – ونظره إلى الأمر من جميع وجوهه، وتقديره للموقف، وترجيح حاجة الجماعة على حاجة المستأذن، فقد يأذن أولا يأذن حتى بعد بيانكم للحاجة والعذر، أو يأذن لبعض – كما حدث فى إذنه لعمر بن الخطاب يوم تبوك – ولا يأذن لآخرين، فهذا وذاك راجع لمشيئته ورأيه لا لحاجتكم وأعذاركم.

وهو ما أكده أمر المبالغة فى الاحتفاء برسول الله – ﷺ – إذ جعل – سبحانه – الاستئذان للذهاب عنه ذنباً محتاجاً للاستغفار، فضلا عن الذهاب بدون إذن، ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم، لاعلى الاستئذان مطلقاً، ولا على الاستئذان لأى أمر مهماً كان أو غير مهم، ومع ذلك علق الإذن بالمشيئة[1].

قال تعالى (**لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**)[2] ورد فى سبب نزول هذه الآية: أنه كان لايخرج أحد من عند رسول الله – ﷺ – لرعاف أو إحداث حتى يستأذنه، فيشير إليه بأصبعه التى تلى الإبهام، فيشير إليه – ﷺ – بيده، وكان من المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين، قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله هذه الآية، فهى بهذه المثابة – وعيد لمن هم أضداد أولئك المؤمنين المستأذنين، ولما كان التسلل هو الخروج من البين على التدريج والخفية، وقد للتحقيق – هنا – والتوكيد – عمد البيان القرآنى للتعبير بالموصول وصلته مرتين متتاليتين فى قوله (الذين يتسللون... الذين يخالفون..) تبينهاً للمخاطبين على خطأ قد وقع من غيرهم، وذلك إذا كان

١) روح المعانى ٢٢٤/١٨، والتفسير القرآنى للقرآن ١٣٣٥/١٨

٢) سورة النور / ٦٣

فى الصلة ما يشعر بهذا الخطأ، وهو ما يتلائم ودلالة لفظى (يتسللون، يخالفون...) فضلاً عن ترتيب الحذر أو الأمر به على ما قبلها من علمه – تعالى – بأحوالهم، فإنه مما يوجب الحيطة والحذر ألبتة، أضف إلى هذا إيثار (قد) وإفادتها معنى التكثير من سياق الكلام، كما فى قوله زهير:

أخى ثقة لا يهلك الخمر ماله .:. ولكنه قد يهلك المال نائله

فإن سياق الكلام للمدح، يفهم منه ذلك، أى: قد يعلم الله الذين يخرجون عن الجماعة قليلاً قليلاً على خفية لواذا،

وقد يكون الغرض من التعبير بالموصول – أيضاً – التحقير من حقيقة وأوصاف الاسم الدال على المسند إليه (المتسللين، والمخالفين) درءا لنفور النفس من سماعها، وتجنباً لإسماع المخاطب ما تشمئز منه نفسه وتأباه أذنه، إن كشف اللثام عن بعض مغابن هؤلاء وآثارهم السلبية، وهو مأأكد باختيار لفظ المخالفة مع اقترانها – على غير الغالب – بعن دلالة – على تضمين معنى الإعراض، وتقبيحاً لحال المخالف، مع تعظيم أمرالمخالف عنه، فذكر الأهم وترك مالا اهتمام به، ففى تعدية الفعل (يخالفون) بحرف الجر (عن) مع أنه فعل يتعدى بنفسه، إشارة إلى أن هذا الفعل قد ضمن معنى الخروج، فهو مخالفة وخروج معاً، إذ قد تكون المخالفة فى الرأى، ثم يكون الامتثال بالعمل، وهؤلاء المخالفون الذين توعدهم الله، قد جمعوا بين المخالفة فى الرأى، والخروج عليه قولاً وعملاً، ولذلك جمع لهم (بأو) فى الجزاء على مخالفتهم، بين عذاب الدنيا والأخرة بقوله (أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم..) لما أن الأمر الجامع لهم فى التسلل والمخالفة: إما أن يكون أمراً دنيوياً، كالتشاور فى الأمور الحربية، فالانصراف عنه مظنة إصابة المحنة الدنيوية للمنصرفين، وإما أن يكون أمراً دينياً كإقامة الجمعة التى فيها تعظيم شعائر الإسلام، فالانصراف عنه مظنة إصابة العذاب الاخروى[1].

---

١) التفسير القرآنى للقران ١٨/١٣٣٧، وروح المعانى ١٨/٢٢٦، والجامع لأحكام القرآن ١٢/١٤٠-١٤٢.

المبحث الثالث
الموصـــولات المشـــتركة

قال تعالى (**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**)[1]

لما كان أهل بيت النبوة هم كوكب الكرامة الدرى، الذى تستنير به دروب أهل الكرامة، وحصن الشرف المنيع الذى أحكم بنيانه بآيات اللطيف الخبير، وبحر الطهارة الخضم الذى يشرب ويغتسل منه كل مسلم، عمد البيان القرآنى فى توجيه خطابه فى هذه الآية – لجماعة المؤمنين، محملاً إياهم شيئاً من وزرهذا البهتان الفاضح، الذى وجد صداه فى آفاق مجتمعهم، ومؤكدا على أن الذين لم يشاركوا فيه، ولم يستمعوا لبهتانه، ولم يمنعوه بإيجابيتهم المنتظرة، بل تركوه بسلبيتهم يستشرى فى المجتمع ويسرى سريان النار فى الهشيم، قد مسهم شئ من ريحه الخبيثة، وكيف ذلك؟ فالناظر للمختلقين للإفك يراهم جزءاً من هذا المجتمع، ولو نزل بهم بلاء، لعم غيرهم من المؤمنين فى مجتمعهم، لكن فضل الله على المؤمنين، قد اتسع فشمل غيرهم، بأن منع الله نزول البلاء عن المذنبين حتى لا يمس الموحدين فيه شئ، فكان تفضله وإحسانه – سبحانه – على المؤمنين وقاية من إنزال البلاء بالمسيئين، فلم يعجل لهم بالعقوبة الدنيوية، بل أعطاهم الفرصة كى يتوبوا وتحسن توبتهم، فيكون العفو والمغفرة منه لهم بعد توبتهم، ويظهر عظم فضل الله ورحمته بعد الاطلاع على حقيقة الأمر فى هذا البهتان، والذى أثر فيه البيان القرآنى التعبير بالموصول (فيما أفضتم فيه...) بالإبهام وعدم بيان حقيقته والإفصاح عن طبيعته، تهويلاً وتعظيماً لأمر المبالغة والإكثار فيه والتحقير والازدراء من شأن هذه الإفاضة، وهو ما يؤكده لفظ (أفضتم) فأفاض فى الأمر: أى بالغ فيه، وأكثر منه، وأفاض فى الحديث، توسع فيه، وجاوز الحد، فالإفاضة: مستعارة من إفاضة الماء فى الإناء، ولا يخفى ما كان فى هذا الحدث من توسع ومبالغة فى مجاوزة الحد، والإكثار فيه، وإلا فمن

---

١) سورة النور / ١٤

الظاهر: أن الاتهام فى نفسه كان فرية واختلاقاً، فما كان لأحد له حظ من العقل أن يؤكد على تخلف أم المؤمنين عن الرحيل بحيلة مدبرة، فمدبرو الحيل: لا يدبرونها بتخلف زوجة خفية مع واحد منهم، ثم تأتى فى وقت الظهيرة جهرة راكبة على بعيره، ورئيس القوم رسول الله – ﷺ – بين ظهرانيهم، فهذه الصورة من الواقع، تدل بوضوح على براءة ساحتها، لأن الاتهام الوحيد الذى يكون أساساً فى هذه الحال هو رؤيتهما بأعينهم يرتكبان الفاحشة، وهذا لم يشهد أو يقربه أحد لعدم قربهم منهما، فدل على بهتان مقولتهم...)[١].

قال تعالى: (**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**)[٢]، جاءت هذه الآية فى سياق الآيات التى تبين فضل الله ورحمته على الناس، فلولا تفضله لمسهم العذاب إبان تلقيهم ما أفاضوا فيه من الإفك، وأخذ بعضهم إياه من بعض بالسؤال عنه، والتعبير بالموصول (ما) له دلالته، وهو زيادة التقرير للمسند، الذى هو: التلقى بالألسنة، والقول بلاروية أوفكر، فهو قول باللسان لا يترجم عما فى القلب، إذ ليس له قرائن أو أحوال تؤيده، أو شواهد تصدقه، إنما هى أحداث وقعت مع استصغار ذلك وحسبانه هيناً – علماً – بأنه عظيم عند الله – وأن هذه الأفعال وقعت لا محالة، وهو ما يبدو فى الجمع بين الأفعال الثلاثة بالواو دون غيرها، والتى هى لمطلق الجمع، إذ تومئ إلى أن هناك ترابطاً بين الأحداث عند وقوعها، فلم يك زمن واضح بينها، بحيث لايدرك المخاطب أيها السابق وأيها اللاحق، ومما يؤكد هذا المعنى: التعبير بالظرف (إذ) بدلاً من غيره، هو ما يجعل هذا الخبر واقعاً محققاً، أضف إلى هذا طبيعة الفعل المعبر به عن هذا العمل (تلقونه) بصيغة المضارع، والتى تشى بتجدده واستحضاره مع سرعة استقباله وخطفه عند سماعه، بل وأخذه بسرعة مع ما فيه من حذق ومهارة، أى أن مادار بينهم من إثم، هو حديث ألسنة، لا تنطق عن علم، ولا تأخذ عن عقل، إنه حديث لسان

١) التفسير القرآنى ١٨/١٢٤٢ بتصرف يسير
٢) سورة النور / ١٥

يأخذ عن لسان، بحيث لا يعطى للناس فسحة من الوقت يتلقونها بآذانهم ثم يديرونها فى خلدهم وعقولهم، ليكون لهم خيار فى قبولها أو مجها، بل إنها تلقى على ألسنتهم خلقاً مصنوعاً، مجهزاً للتعامل به على تلك الصورة، وإن لكلمات السوء لحلاوة على ألسنة أهل السوء والفساد، يرتشفونها كما يترشفون قطرات الماء البارد على ظمأ فى يوم شديد القيظ، فالكلمة فى حساب المفسدين، وأصحاب النفوس المريضة، مجرد صوت ينطلق من فم، هى شئ رخيص لا وزن له ولا ثمن، هى بضاعة رخيصة من لغو الكلام، لكنها فى حساب أهل الحكمة والتريث... شئ عظيم، فهى رسالة من الرسالات إلى عقول الناس، بل هى آية الله فى الإنسان... بها كان خليفة الله فى أرضه..)، فإن قلت: ما معنى قوله (بأفواهكم) والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلت: معناه: أن الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب، فيترجم عنه اللسان، وهذا ليس إلا قول مختص بالأفواه من غير أن يكون له مصداق فى القلب، باعتباره ليس تعبيراً عن علم، فهو كقوله (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم..)[1] وقيل: إنه توبيخ كما تقول "قاله بملء فيه" فإن القائل ربما رمز وربما صرح وتشدق...)[2] من هنا ندرك السر فى إيثار التعبير بالموصول (ما) دون غيره، والمفيد للشمول والعموم ليتسع فى عموميته، فيحوى كل ما يمكن أن يطلق عليه تلقى أو قول أو استخفاف بالكلمة، أو إنفاذ من رصيد الألسنة بغير حساب، وليشتمل على كل حركة آلية، اشترك فيها من كيان المختلقين للإفك ألسنة أو أفواه، ولا تدرك أن ما أشاعته أو تلقته وتفوهت به – هو فى حقيقة الأمر– أخبث ما نطقت به أفواه من كلم، إذ كان زوراً وافتراءاً على الحق فى أرفع منازله، وعدواناً على الطهر فى أشرف مواطنه.

---

١) سورة آل عمران / ١٦٧

٢) روح المعانى ١١٩/١٨، وتفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل / محمد جمال الدين القاسمى ١٤٦٣/١٢ بتصرف، واعتبره سعد الدين التفتازانى من قبيل التتميم، ' إذ قد أتى فيه بفضلة لنكتة هى: التأكيد على عدم وجود علم يترجم عليه فى القلب، مع إنه قد وقف على مثل تلك الآية دون أن يدرجها تحت أى صورة من صور الإطناب، وقال: القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم لاغير، ولهذا قال الله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم...) ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى ٢٢١/٣.

قال تعالى (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)[1] لما كان هدف البيان القرآنى توجيه النصيحة للمسلم من خلال الأحكام والتشريعات كى يسلك بها مسلك التربية السليمة فى سبيل الحفاظ على سلامة الأنفس والأعراض، واستقرار النفوس مع سلامة الوجدان، فقد جاء أمره – هنا – بغض البصر عن المحرمات، وحفظ الفروج من الزنا وغيره باعتبار أن هذا أطهر للنفوس وأدعى إلى السعادة والعزة[2]. لذا عمد البيان القرآنى إلى استثمار التعبير بالموصول (ما) فى قوله: (إن الله خبير بما يصنعون...) للتأكيد على زيادة تقرير الغرض المسوق له الآية، وهو خبرة الله بصنعته، وعدم خفاء صغيرة أو كبيرة مما يذرون أو يفعلون، مما يصدر عنهم من الأفاعيل التى من جملتها إجالة النظر إلى النساء، أو إلى عورات غيرهم، أو إلى المناظر الفاحشة، مع استعمال سائر الحواس وتحريك الجوارح، وما يقصدون من وراء ذلك، والتعبير بالموصول أدل على هذا الغرض، مما لو قال: إن الله خبير بنظراتهم وفحوها أو بأفعالهم ومؤداها، لأن مثل هذا يقرر الغرض فقط بخلاف التعريف بالموصولية، فإنه يزيد الغرض تأكيداً، لاشتمال الصلة على ما يفيد هذه الزيادة فى التقرير. فالمضارع (يصنعون) بصورته الدالة على استحضار هذه الأفعال مع تجدد هيئتها، باعتبارها أمور لا تقع – غالباً – إلا فى خفاء وستر، فضلاً عن أنها أمور جزئية كثيرة الوقوع،

١) سورة النور / ٣٠

٢) وقد قيل فى سبب تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله (ﷺ) أن بعض المؤمنين جاء إليه (ﷺ) كالمستدعى لأن يقول له ما فى حيز القول، فقد أخرج ابن مردويه عن على (كرم الله وجهه) قال مر رجل على عهد رسول الله (ﷺ) فى طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشى إلى جانب حائط، وهو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال و الله لا أغسل الدم حتى آتى رسول الله (ﷺ) فأتاه فقص عليه قصته، فقال النبى (ﷺ) هذا عقوبة ذنبك، وأنزل الله الآية فيها: إيذان بأن المؤمنين لفرط مطاوعتهم لرسول الله (ﷺ) لاينفك فعلهم عن أمره، وأنه كالسبب الموجب له.

والإنسان فى هذه المواقف معرض للزلل والعثار، من خطرات نفسه، أو نظرات عينه أو فحش لسانه – إلى غير هذا مما لا يكاد يسلم منه أحد، هذا التعبير هو ما يتلاءم – بعينه – مع عين الغرض المسوق له الكلام، فالحل والحرمة من هذه الأفعال المتكررة والتى لا يسلم منها أحد، لا يدرك كنه حقيقتها ومردها وهدفها من نفس مؤديها وعاقبتها من سعادة أو خزى، إلا خبير، لا يخفى عليه شئ صغيرا أو كبيراً فى محيط كونه، خبير بما فى النفس البشرية من نوازع وعواطف، تتحرك حسبما يقوم بينها وبين العالم الخارجى من صلات وروابط، فالاستحضار لكل ما سبق، مع عمومية صنعهم، يدفع بهم بحكم مراقبتهم له إلى سرعة الامتثال والاستجابة لأوامره، لأنها سبب من أسباب النجاة والسلامة للأنفس والأعراض فى كل المجتمعات.

قال تعالى (**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا...**)[1] الخطاب فى هذه الآية موجه للمؤمنات، مع أن الأصل فى الخطاب القرآنى فى كثير من آياته يوجه للرجال – باعتبارهم – الجنس الغالب الذى يتأتى لهم الخطاب غالبا، أما هذه الآية فقد وجهت لهن، لأن ما يأتى فى إها بها من أحكام زائدة على الرجال يتعلق بهن ويخصهن دون غيرهن، أضف إلى هذا: وجود أمور هى ذرائع إلى الفتنة والإغراء بها من جانب الرجال، فوجه الخطاب إلى المرأة، لأنها المعينة فى هذا الجانب بسد هذه الذرائع، وغلق هذه النوافذ، التى تطل الفتنة منها على الرجال، وهذه الذرائع هى ما جاءت مفصلة فى الآية على هذا الترتيب (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها...) بالنهى عن إظهار شئ من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره، وكان الأصل فيه الظهور، فلا مؤاخذة فى إبدائه للأجانب، إنما المؤاخذة فى إبداء ما خفى من الزينة. وأمر المرأة بإخفاء كيانها كله، مما لا تحتمله النفووس، ولا تقبله الحياة، من هنا نفت الشريعة الإسلامية الحرج عنهن، فكان الاستثناء بقوله (إلا ما ظهر منها...) أى إلا ما لابد من ظهوره، حتى

١) سورة النور / ٣١

تعيش المرأة فى الحياة، وتشارك فيها، وهو ما يبدو واضحاً فى استثمار التعبير بالاسم الموصول (ما ظهر) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو النهى عن إبداء شئ من زينة النساء وحرمة ذلك، لأن الغرض من هذا النهى بعدم الإبداء، هو: ما ينبغى أن يأخذن أنفسهن به من الأدب والاحتشام، حتى لا يتعرضن للفتنة، أو يقعن تحت دائرة الشك أو الاتهام، فكل ذلك أمانة هى مؤتمنة عليه، وليس هناك من سلطان يحكمها وتصرفاتها ونواياها، إلا دينها وضميرها وعفتها. ويصح أن يكون لتعريف المسند إليه بالموصولية – هنا – غرض ثان يتمثل فى تقرير المسند إليه نفسه، المعبر عنه فى الآية بالاسم الموصول (ما ظهر...) وهو ما جاء واضحاً فى ذكر الزينة والنص عليها فى قوله (زينتهن...) دون مواقعها، للمبالغة فى الأمر بالتستر، ولأن هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد، لا يحل النظر إليها، فنهى عن إبداء الزين نفسها، ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنا – فى الحظر، ثابت القدم فى الحرمة، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها، ويتقين الله (تعالى) فى الكشف عنها...)[1]

ويأتى قوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن...) لتحديد واحد من أصناف الرجال، الذين هم محارم للمرأة، أو أشبه بالمحارم لها... وليس عليها من جناح فى أن تتخفف كثيراً أو قليلاً من هذا الحظر المضروب عليها فى عدم إبداء زينتها، ومعلوم أن الموصول اسم يعين مسماه بواسطة جملة تأتى بعده تسمى صلة، وقد يكون المخاطب لايعلم شيئاً عن ذات المسند إليه (من هم فى ملك اليمين...) سوى مضمون هذه الجملة، لذا عمد البيان القرآنى – فى هذا المقام – إلى التعبير عن ذات المسند إليه باسم الموصول، ليتسنى بتعريفه بالموصولية الإخبار عنهم والحكم عليهم بمعرفة الأحوال المختصة بهم، وهو جواز إبداء الزينة من النساء أمامهم، لأن اعتبار ملك اليمين، أهلاً لأن ينظر إلى مالكته نظرة اشتهاء، فيه إيذان بفتح باب فتنة وفساد، إذ يخلى المرأة من شعور الترفع عن أن تكون مستفرشة لخادمها وملك يمينها. فضلاً عن أن هذا يجرئ المملوك

١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢٣٠، والكشاف للزمخشرى ١٨/١١٠

على التطاول إلى سيدته والطمع فيها. وفى التخفف من زينة المرأة أمام الرجال من مملوكيها، إشعار له ولها، بقيام الأمر بينهما على غير ما يقوم عليه الحال بينها وبين الأجانب من الرجال، وبهذا يموت أو يصل إلى قريب من الموت، هذا الإحساس الذى يكون بين المرأة والأجنبى عنها. فالمملوك وإن كان رجلاً، فيه ما فى الرجال من رغبة واشتهاء – هو بالنسبة إلى مالكته كأحد محارمها، الذين يباح لهم مخالطتها ومعايشتها، فضلاً عن أن تخففها من زينتها فى وجوده يشعره ويشعرها بهذا المعنى، وهو أنه ينبغى ألا يمد بصره إليها، كما لا يليق بها أن تشتهيه.

أما قوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) فيأتى فى إطار الحديث عن الذين يباح للمراة فى حضورهم التخفف من زيها، والتعبير بالموصول (الذين) يفيد زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو إباحة التخفف أمام هؤلاء الأطفال، إذ لم يفهموا أحوالهن، ولم يعرفوا ما العورة لصغرهم، إذ لا يستطيعون التمييز بين ما هو بعورة وما ليس بعورة من المرأة، ولا يثير فيهم حسن المرأة وحركاتها شعوراً بالجنس لديهم، ومن ثم لا يكون النظر إليها مدخلاً إلى الفتنة، لأنهم فى تلك الحال بعيدون عن التفكير فى المرأة، وعن النظر إليها فى رغبة وشهوة. ويصح أن يكون لتعريف المسند إليه بالموصولية – هنا – سر ثان هو: تقرير المسند إليه نفسه الذى هو (الطفل الذين لم يظهروا...) من قولهم: ظهر على الشئ: إذا اطلع عليه فجعل كناية عن ذلك، أو الذين لم يبلغوا حد الشهوة، والقدرة على الجماع، على أنه: من ظهر على فلان: إذا قوى عليه، ومنه قوله تعالى (فأصبحوا ظاهرين) ويشمل – الطفل الموصوف بالصفة المذكورة بهذا المعنى – من كان دون المراهق، لكنه بحيث يحكى ما يراه على وجهه، فيباح فى حضوره ما يباح فى الخلوة، ومن ثم لا يكون النظر من هؤلاء إلى المرأة مدخلاً إلى الفتنة، لأنهم لا ينظرون إليها نظرة رغبة واشتهاء، كما وضحته الآية.

أما قوله تعالى (ولايضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن....) فيأتى فى إطار بيان مقصد من المقاصد الأساسية للتشريع الإسلامى، والتى منها: صيانة الأعراض، وحفظ الأنساب والتسامى بالمجتمع المسلم عن الطابع

الحيوانى الغريزى إلى آفاق من النور الإلهى. هذا وقد اتخذ الاسلام وسائل عديدة لسد منافذ الفحشاء، وتطهير المجتمع منها، كضمانات وقائية تضمن للمجتمع المسلم العيش فى مناخ نقى زكى فلا يرى إلا صورة الخير، ولا يتحرك إلا على هداها. من هنا عمد البيان القرآنى إلى استثمار الموصول (ما يخفين...) قصداً إلى التفخيم والتهويل من أمر المأتى به، فالمتعارف عليه لدى البلاغيين: أنه إذا قصد تفخيم المسند إليه وتهويل أمره، أتى به اسم موصول، لما فى بعض اسماء الموصول من إبهام وغموض يشعر بالتفخيم والتهويل بل وعمومية هذا الإعلان لكل مايستر عن الرؤية، إذ يشمل كل قول مثير أو فعل فاضح، أو حركة متثنية متكسرة، تبدو فى أشكال متصنعة فى مشى المرأة مشية تهتز معها الأرداف، وتتماوج فيها الصدور، معلنة بهذه الأفعال الفاضحة المستنكرة إشاعة الفاحشة، وإغراء القلوب الضعيفة، وإضعاف النفوس القوية مع توريث الرجال ميلا لهن. ومن أجل تحقيق هذا المعنى عبر فى الآية بما الموصولية، إشارة إلى أن تفصيل المسند إليه وبيانه مما لا تفى به عبارة، ولا يحيط به علم مخلوق(١). وقد خرجت العمومية والتهويل والتفخيم لهذه الأفعال السابقة وغيرها مما لا يذكر، فى صورة تضاد (ليعلم ما يخفين.....) ولا يخفى ما للطباق من أثر إذ يحدث فى نفس القارئ نوعاً من المتعة والجمال، يتأتى من الجمع بين الألفاظ المتضادة فى التركيب، بل ويحدث عنده نوعاً من الحضور الذهنى، يجعله يستحضر صورة الإعلام والأصل فيه الإخفاء، وما يعكسه كلاهما من أثر، فيكون هذا الاستحضار سبباً فى الامتثال لأمر الله، والبعد عن كل مايغضبه.

---

١) والنساء اليوم على جعل الخرز ونحوه فى أسفل الحذاء، فإذا مشين به – ولو هوناً – صوت، ومن الناس من يحرك شهوته وسوسة الحلى أكثر من رؤيته. وفى النهى عن إبداء صوت الحلى بعد النهى عن إبداء عينه من النهى عن إبداء مواضعه ما لايخفى، ومما يلحق بالزينة المنهى عن إبدائها ما تلبسه أكثر مترفات النساء فى زماننا فوق ثيابهن ويتسترن به إذا خرجن من بيوتهن، وهو غطاء من حرير ذى عدة ألوان، وفيه من النقوش الذهبية أو الفضية، ما يبهر العيون، ومنه أيضاً عدم احتجاب أكثر النساء من إخوان بعولتهن، وعدم مبالاة بعولتهن بذلك، وكثيراً ما يأمرونهن به روح المعانى للألوسى ١٤٦/١٨

وهكذا يجتث الإسلام بذور الفحشاء، ويجفف منابعها، فلا تثار شهوات، ولا تهيج غرائز، لا حركة، لا صوت ولا تخيل، إنه مجتمع رباني تتعالى فيه المؤمنة بربها مع كثرة شيوع الوسائل المغرية للفحشاء، وعلى الرغم من هبوط الذوق العام، وغلبة الطابع الحيواني باسم التمدن والتحضر، إنها تتعالى عن ذلك كله، ملبية نداء ربها، مستجيبة لأمره، فالمسئولية بين يدى الله – عز وجل – مسئولية فردية، مصداقاً لقوله تعالى **(ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر.........)**[1]

قال تعالى **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)**[2] جاءت هذه الآية عقيب ذكر حال أهل الإيمان، وما أعد لهم من ثواب، بذكر مقابلهم وهم الكفرة وما أعد لهم من عقاب، فالخيبة والخسران فى الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال فى الدنيا كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين، وظنوا أنها منجاة من عذاب ربهم، وهم مع ذلك جاحدون لوحدانيته، مكذبون لرسله، والتعبير – فى الآيتين – يرسم لحال الكافرين مشهدين عجبيين حافلين بالحركة والحياة، ففى المشهد الأول: يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفه مبسوطة، يلتمع التماعاً كاذباً، فيتبعه صاحبه الظامئ، وهو يتوقع الرى غافلاً عما ينتظره هناك.... وفجأة يتحرك حركة عنيفة... فهذا السائر وراء السراب، الظامئ الذى يتوقع الشراب، الغافل عما ينتظره هناك.... يصل فلا يجد سوى المذهلة التى لم تخطر له ببال، المرعبة التى تقطع الأوصال، (ووجد الله عنده) الله.... الذى كفر به وجحده، وخاصمه وعاداه، وجده هناك ينتظره، ولو وجد فى هذه المفاجأة خصماً له من بنى البشر لروعه، وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو

---

١) سورة القيامة / ١٢

٢) سورة النور / ٣٩

يجد الله القوى المنتقم الجبار؟[١] من هنا آثر البيان القرآنى التعبير بالموصول (الذين) إيماءاً إلى نوع الخبر المراد إسناده إلى المسند إليه (الخيبة والخسران، وعدم الإنتفاع بثمرة الأعمال فى الآخرة) والمعبر عنه باسم الموصول من حيث كونه إخفاقاً وعقاباً، ولما كان الهدف هو: إشعار السامع بنوع الخبر قبل النطق به، ليتحقق له الإيماء إلى نوع الخبر، نظراً لما فى صلته (أعمال الكفرة من مناسبة للخبر تشعر بنوعه وطريق إسناده إلى الموصول قبل النطق به، فيكون الخبر المترتب عليه من جنس الإذلال والخسران والعقوبة والإخفاق، لذا عمد إلى ضرب المثل فى شكهم وظنهم السئ بالله وبالمؤمنين، وأنهم يعيشون فى الظنون والأوهام، بحال من سلك طريقاً فى الصحراء بلا متاع ولا عدة ولا مال يتبع سراباً، فهو يمنى نفسه بالماء وسط الصحراء، حتى إذا جاءه بعد عناء وجهد، وجده سرابا محققاً، فألقى مكانه ينتظر الهلاك.

أما قوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور...) فهو بيان لطبيعة الكفر الذى هو ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى، ومخافة لا أمن فيها ولا قرار، إذ يقابل نور الله الذى هو هدى فى القلب، وتفتح فى البصيرة، واتصال فى الفطرة بنواميس الله فى السموات والأرض... فمن لم يتصل بهذا النور، فهو فى ظلمة لا انكشاف لها، وفى مخالفة لا أمن فيها، وفى ضلال لا رجعة منه، فهو اعتراض تذييلى[٢]، جئ به لتقرير ما أفاده التمثيل من ضياع أعمال الكفار، وتحقق ذلك

---

١) فى ظلال القرآن / للشيخ سيد قطب ٤/٢٥٢١، والتفسير القاسمى ١٢/٤٥٣٦

٢) وفى دلالة كاد يقول عبد القاهر: (الذى يقتضيه اللفظ، إذا قيل: لم يكد يفعل، وما كاد يفعل أن يكون المراد أن الفعل لم يكن من أصله، ولا قارب أن يكون ولا ظن أنه يكون وكيف الشك فى ذلك؟ وقد علمنا أن كاد موضوع لأن تدل على شدة قرب الفعل من الوقوع، وعلى أنه قد شارف الوجود، وإذا كان كذلك كان محالاً أن يوجب نفيه وجود الفعل، لأنه يؤدى إلى أن يوجب نفيه مقاربة الفعل للوجود وجوده، وينبغى العلم إنما قالوا فى التفسير لم يرها ولم يكد فبدأوا فنفوا الرؤية ثم عطفوا لم يكد عليه ليعلموك أن ليس سبيل لم يكدها هنا سبيل ما كادوا فى قوله تعالى (فذبحوها وما كادوا يفعلون) فى أنه نفى معقب على

لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره، وإيراد الموصول (من) للإشارة بما فى حيز الصلة وهو علة الحكم، وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم، وللتحقير والازدراء باسم المسند إليهم، فلشدة إصرارهم على كفرهم، تراكمت عليهم الضلالات، حتى أظهروا الدلالات، فإذا ذكرت عندهم لا يفهمونها، فقلوبهم مظلمة، وهى فى صدور مظلمة، فى أجساد مظلمة، فمن أين تأتيهم الهداية؟!

قال تعالى (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ – لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**)[1] جاءت هذه الآيات عقب الآيات الممثلة لطرف من نور الله (تعالى) الذى يملأ الوجود كله، ويسرى فى كيان كل ذرة فيه، بل يقيمها المقام المناسب لها فى ملكوت السماوات والأرض، وأن هذا النور قد اهتدى به المهتدون، فكانت لهم السعادة والرضا، على حين قد عمى عنه كل المشركين والضالين، فأذاقهم الله الوبال والخسران، ولما كان الامر كذلك جاءت هذه الآيات – التى نحن بصددها – مؤثرة التعبير بالموصول فى أكثر من مرة (يسبح له من.....) (والله عليم بما يفعلون...) (فيصيب به من يشاء) (فمنهم من يمشى...) (يخلق الله ما يشاء...) لزيادة تقرير المغرض المسوق له الكلام، وهو: استعراض قدرة الله، وبسط نفوذه، وسلطانه المتمكن فى هذا الوجود، والآخذ بناحية كل موجود، والتعبير بالموصول أدل على هذا الغرض وزيادته، لاشتمال الصلة على ما يفيد هذه الزيادة فى التقرير. وقد يكون السر فى التعبير بالموصول هو تقرير المسند نفسه وهو التسبيح والخضوع مع انقياد الوجود كله لله وإحاطة علمه بهم وولائهم وعبوديتهم لذاته، عن طريق النظر والمكاشفة والاستدلال، فالله – تعالى – منزه فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل مالا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل تنزيهاً معنوياً تفهمه العقول

إثبات.. ألخ ينظر: دلائل الإعجاز ١٨٩-١٩١ والبحر المحيط ١/٨٨، ٦/٤٦٢ وشرح المفصل لابن يعيش ٧/١١٩، ١٢٤-١٢٦.

١) سورة النور / ٤١-٤٦

السليمة فى السموات والأرض، فإن كل موجود من الموجودات الممكنة مركباً كان أو بسيطاً هو من حيث ذاته وأحواله المتجددة يدل على صانع منزه عن كل ما لا يليق بشأن من شئونه الجليلة، وقد نبه – سبحانه – على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها، حيث عبرعنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها، تنزيلاً للسان الحال منزله لسان المقال.... وتخصيص التنزيه بالتسبيح دون غيره، لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه[١] فضلاً عما أودعه الله فى كيان كل مخلوق من قوى يتصرف بها، ويعمل حسب ما يسره الله له، فقوى هذا المخلوقات وعملها مشعر بأنه عمل يحكمه ويؤطر ذاتيته علم عالم بكل ما يفعل الخلق، محيط بكل شاردة وواردة فى علمها وعملها معاً، حتى يتسنى له بهذه الإحاطة تحقيق التآلف والتجاوب بين جميع الموجودات فى حمد الله وتسبيحه، فهو علم متمكن، لأنه علم الخالق لما خلق، وهو ما أكده إيثار الموصول (ما، من) المفيدان للعمومية والشمولية. ويصح أن يكون هناك سر بلاغى ثالث للتعبير بالموصول – هنا – هو تنبيه المخاطب على خطأ وقع فيه غيره، وكيفية تحقيق هذا الغرض تستلزم الرجوع للغرض المسوق له الخطاب وهو استعراض ما لله من بسطة نفوذ وقدرة وإحكام، ففى هذا الاستعراض تثبيت لإيمان المؤمنين، وربط على قلوبهم، وتوثيق للصلة التى أقامها الإيمان بينهم وبين ربهم، ومن جهة أخرى: فإن فى هذا العرض دعوة مجددة إلى الكافرين والمشركين والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض أن يعيدوا النظر فى موقفهم هذا الزائغ المنحرف عن سواء السبيل، وأن ينظروا فى هذه المعارض التى تعرضها تلك الآيات لجلال الله وهيمنته وعظمته، ففيها نور الله لمن يلتمسون النور، ويطلبون الهدى[٢]، ولو صرح بتوجيه الخطاب للمشركين والمنافقين لما أفاد تنبيه المخاطبين على وقوع الخطأ من هؤلاء.

أما قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحاباً... فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء.) فهو إلفات لظاهرة من الظواهر الطبيعية التى يشهدها

---

١) روح المعانى للألوسى ١٨٧/١٨

٢) التفسير القرآنى للقرآن ١٢٩٦/١٨ بتصرف

الناس فى كل زمان، ومكان... فهذه السحب التى تنطلق فى مواكب متدافعة فى جو السماء كأنها جيوش غازية، تزحف إلى ميدان القتال، أو تتراكض عائدة من المعركة محملة بالأغنام والأسلاب، من أنشاها؟ ومن سيرها؟ ومن وقف بها عند غاية معلومة لها؟ والحق أن كل ذلك مستند إلى إرادة الله – عز وجل – ومشيئته سبحانه المبنية على الحكم والمصالح، ولما كان الغرض المسوق له الكلام هو طلاقة قدرة الله تعالى ونفاذ سيطرته وإحكامه لكل ما خلق، كان التعبير بالموصول (من) زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو بيان قدرة الله تعالى والنظر المطلق الشامل للوجود كله، وما قام عليه من نظام، وأكد ذلك كله بإيثار الفعل (يزجى) والمفيد سوق الشيئ برفق وسهولة، وقيل: سوق الثقيل برفق، وغلب فى سوق شيئ يسير أوغير معتد به، وقيل التى تزجى أى تدفع للرغبة عنها، ففى التعبير بيزجى على ما ذكر إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتد به، فقطرات الماء، وهى تتساقط من السحاب إلى الأرض، لتبعث الحياة والحركة فى جمادها ونباتها وحيوانها، أشبه ما يكون بعملية خلق وبعث جديدين، لهذا الجسد الهامد، ثم هو بعد ذلك عرس رائع، تحتشد له الأحياء وتنطلق من كيآنها نشوات البهجة والحبور، فى أهازيج وأناشيد، يتألف منها لحن عبقرى بالتسبيح والتمجيد لله رب العالمين[1] فما أعظمها من قدرة؟!! أضف إلى هذا الجمع بين المتضادين (يصيب... يصرف..) وما له من قيمة جمالية تتمثل فيما يضفيه على العبارة من جمال يحدث بالجمع بينهما ليؤكد قدرة الله وإحكامها فى امتلاكها للقدرة على الإصابة لأناس والصرف عن آخرين، وفى الجمع بينهما نوع من الحضور الذهنى يدفع المستمع إلى استحضار صورة من يناله البرد فيناله ما يناله من ضرر فى نفسه وما له، وما فيها من عذاب، وصورة من ينجو من غائلته، وما فيها من رحمة، وهذا الاستحضار يدفع إلى جو من الرهبة والرغبة، يؤدى بالمستمع إلى الثقة المطلقة فى تقدير الله وحكمته.

---

١) السابق ذاته

أما قوله تعالى (فمنهم من يمشى على بطنه.... يخلق الله ما يشاء.)[١] هذه الآية شارحة لنعمة الماء، الذى أشارت إليه الآيه قبل السابقة، باعتباره أصل هذه الحياة، إذ هو جرثومة كل حى... من نبات أو حيوان أو إنسان... فالماء هو الحياة العاملة فى هذه الكوكب الأرضى، فحيثما يوجد الماء يوجد الخصب والنماء، وتشاهد الحركة والحياة فى صورها وأشكالها المتباينة، وحيث يفتقد الماء، يكون الجدب والموات والهمود، من هنا آثر البيان القرآنى التعبير بالموصولين (من –ما) إيماءاً منه للتعريض بتعظيم شأن الخبر، وهو: قدرة وصنعة الخبير الصانع فى هذه الصور التى لا تكاد تحصر من عالم الأحياء، على اختلاف صورها، وتباين أشكالها، وتعدد ملامحها وألوانها، فإذا كان الغرض العام من هذا الخبر هو الإيماء إلى نوعية الخبر، فهذا الإيماء ليس مقصوداً لذاته إنما المقصود جعل هذا الخبر وسيلة لغرض آخر هو التعريض بتعظيم شأن الخبر، فهى إشارة إلى تنوع صور المخلوقات، وتعدد أشكالها، وهى جميعها من مادة واحدة، لا لون لها ولا طعم ولا رائحة... إنها الماء وهذا التقسيم الذى أشارت إليه الآية، هو تقسيم عام، حيث يندرج تحت كل قسم مالا حصر له من صور وأشكال، تنضوى تحت كل قسم، وتندرج تحت كل صنف[٢].

ويصح أن يكون الغرض من تعريف المسند إليه بالموصولية هو تقرير المسند نفسه وهو (الخلق من ماء والمشى...) يؤيد ذلك تسمية حركتها مشياً مع كونها زحفاً وهو مجاز للمبالغة فى إظهار القدرة، وأنها تزحف بلا آلة كشبه المشى وأقوى، فلكل واحد من هذه الأصناف المذكورة حاجة ذاتية إلى الله تعالى واستفاضة منه – عز وجل – لما يهمه بلسان استعداده، وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة فى حد ذاته بمعزل عن استحقاق الوجود لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات إبتداءاً، فهو مستفيض منه تعالى الاستمرار، فيفيض عليه فى كل آن من

١) سورة النور / ٤٥
٢) التفسير القرآنى للقرآن ١٣٠٤/١٨، وروح المعانى للألوس ١٩٣/١٨

الفيوض المتعلقة بذاته وصفاته مالا يحيط به نطاق البيان، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة(١).

وفى معرض التأكيد على الدلالات السابقة يأتى قوله تعالى (يخلق الله ما يشاء...) مؤثراً التعبير بالموصول (ما) بقصد تفخيم وتعظيم المسند إليه وتهويل أمره، فهى إشارة إلى هذه القدرة القادرة، التى تصور، وتخلق هذه الصور، وتلك الأجناس والأنواع من عنصر واحد، هو عنصر الماء، سواء كان المركب من هذه الصور أو البسيط، المذكور فى إهاب الآية وغيره على ما يشاء من الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل، وهذا لا يكون إلا من قادر حكيم عليم، يتصرف كيف يشاء، ولو كان من عمل غير هذه القدرة المطلقة، لجاءت جميع المخلوقات فى قالب واحد، وعلى صورة واحدة، يؤيد هذه الدلالة إظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية الخاصة بها دون غيرها. ومن أجل تحقيق هذا المعنى عبر فى الآية باسم الموصول، لأن فى إبهامه تفخيماً وتهويلاً لا يفى به التصريح، ففى الموصول إشارة إلى أن تفصيل المسند إليه وبيانه مما لا تفى به عبارة ولا يحبط به علم مخلوق(٢).

---

١) روح المعانى ١٨/١٨٨

٢) فى هذه الآية لون من ألوان البديع يعرف بالتقسيم، وقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله "وهو جمع متعدد تحت حكم واحد ثم تقسيمه أو تقسيمه ثم جمعه" ينظر: الإيضاح بشرح الشيخ/عبد المتعال الصعيدى ٣٩/٤، ولهذا اللون بلاغته وأثره فى الأسلوب (فذكر الشئ دون تفصيل أحواله يشوق النفس لمعرفتها، ويلهب الفكر لتصورها، فإذا ما جاءت الأقسام مفصلة والأحوال مبينة ثبتت فى الذهن وتمكنت فى النفس للحصول عليها بعد شوق وطلب وكد، وأسلوب التقسيم من عوامل ترابط الأساليب، واتحاد أجزائها، فأوله متصل بآخره، والعكس، وكل كلمة فيه آخذة بعنق صاحبتها، إذ الفائدة متوقفة على الكلام جميعه، ومعلقة بالإنتهاء منه... وفى التقسيم تناسق صوتى بديعى ينشأ من الجمل المتساوية، والأقسام المحددة، وما فيها من توازن... وحصر أقسام الشيئ واستيفاؤها بالذكر... له أثر جليل فى تثبيت المعانى وتمكينها، يحث يحاط بالشئ من كافة أقسامه، ويحصر من جميع وجوهه، فلا يبقى أمام العقل إلا أن يسلم بما عرض عليه، ويتفرغ لهضمه واستيعابه) ينظر: دراسات

قال تعالى (**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**)(١) هذه الآية استئناف جئ به لتقرير ما قبله من حسن حال المؤمنين، مع ترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم، فهى صورة مشرفة لإيمانهم، وما فى قلوبهم من صدق ويقين، يترجمه الإجابة بالسمع والطاعة، فيما لهم وما عليهم.

ولما كان الهدف هو الإشارة إلى نوعية الخبر المراد إسناده للمسند إليه المعبر عنه بالموصول وهو (الطاعة لله ولرسوله مع خشية الله فيما صدر من الذنوب ومراقبته فى مستقبل أموره) لحمل المخاطب على الطاعة والاستسلام وترك المعاصى، فيكون من الفائزين، كان التعبير بالموصول نظراً لما يكون فى الصلة من مناسبة للخبر تشعر بنوعه وطريق إسناده إلى الموصول قبل النطق به – ففى مدلول الصلة وهو (الدينونة بالطاعة مع امتلاء القلوب خشية، إذ لم ينافقوا فى دينهم، ولم يتجروا بإيمانهم بل كانوا على حال سواء مع الله ورسوله، فى السراء والضراء، فى الشدة والرخاء، فضلاً عن استحضار صورة وهيئة هذه الأفعال مع تجددها بتجدد فاعليها ما يشير إلى أن الخبر المحكوم به من نوع الإثابة والجزاء والامتاع، إذ به يفطن المخاطب من فاتحة الكلام إلى ما تدل عليه خاتمته، ومرد ذلك ومرجعه: الذوق التسليم. وقد يكون السر فى التعبير بالموصول التعريض بإهانة وتحقير غير الخبر، ففى التعبير عن المسند إليه بالموصول إشارة إلى نوع الخبر، وأنهم الفائزون بكل مطلوب، الناجون عن كل محذور، لكن هذا الإيماء إلى نوع الخبر ليس مقصودا لذاته، بل هو وسيلة إلى التعريض بإهانة وتحقير غير المتحدث عنهم، وهم الذين أدعوا الإيمان بألسنتهم دون أن يباشر الإيمان شفافية القلوب، فهم قالوا بألسنتهم، دون أن يتصل

منهجية فى علم البديع د/ الشحات أبو ستيت / ٢٤٤-٢٤٥. وقد جعل إمام البلاغيين: عبد القاهر الجرجانى هذا الأسلوب (من النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فى الصنع، وتأتى فيه أجزاء الكلام متداخلة، بل ويشتد فيها ارتباط آخرها بأولها..) يراجع، دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق العلامة محمود شاكر / ٩٤ بتصرف.

١) سورة النور / ٥٢

بعقولهم وقلوبهم، ولم يؤثر فى حنايا مشاعرهم ووجدانهم (يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) فما أكثر الأقوال وما أيسرها على الأفواه! ويتحقق التعريض بالإهانة بفضح نفاقهم وخاتمة أعمالهم بالخيبة والحسرة، فى الوقت الذى يكافئ فيه المطيعون.

قال تعالى (**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**)[١] جاءت هذه الآية لتعرض صورة أخرى من صور النفاق والمنافقين، بعد عرضها لتلك الصورة المخزية الفاضحة منهم، وعدم قبولهم لحكم الله فيهم... فتراهم فى هذه الصورة لا يستجيبون لدعوة الجهاد فى حينها، وهم المؤكدون للقول بالأيمان المغلظة من ذى قبل – لئن أمرهم الرسول (ﷺ) بالخروج ليخرجن من غير مهل أو تردد، فهم فى مجال القول، أبطال حروب، وفرسان قتال، فإذا جد الجد، هم أحرص الناس على حياة....

وإذا ما خلا الجبان بأرض..... طلب الطعن وحده والنزالا

وقد وبخوا بالنهى عن القسم، إذ جرت سنة الله – تعالى – على أن العبد وإن اجتهد فى إخفاء الطاعة لابد وأن يظهر سبحانه مخايلها على شمائله، وكذا المعصية فلا فائدة فى إظهار ما يخالف الواقع، فطاعتكم معروفة: طاعة باللسان ومخالفة بالعمل، وقد أثر البيان القرآنى التعبير بالموصول (ما) فى قوله (إن الله خبير بما يعملون...) لتقرير الغرض المسوق له الكلام وهو مخالفة الظاهر منهم للباطن فيهم، لاشتمال الصلة على ما يفيد هذه الزيادة فى التقرير، فهم أكدوا بالحلف الفاجر واليمين الغموس فى الظاهر، مع أن حقيقة أمرهم تشى بتنصلهم من كل عهد وصدق ووفاء، فمن لا إيمان له، لا أيمان له. وقد يكون السر فى إيثار الموصول (ما) التفخيم والتهويل لكل ما يأتون من الأعمال الظاهرة والباطنة، والتى من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجره وما تضمرونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين، وغيرها من

---

١) سورة النور /٥٣

فنون الشر والفساد، وعلى ذلك يكون المراد به، الوعيد بمجازاتهم على جميع أعمالهم السيئة، والتى منها نفاقهم. ومن أجل تحقيق هذا المعنى عبر بما الموصولية، لأن فى إبهامها تفخيماً وتهويلاً لا يفى به التصريح، ولا يحيط به علم مخلوق.(١)

قال تعالى **(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ)**(٢) الآية دعوة للمنافقين بالخروج من نفاقهم والاستقامة على طريق الإيمان، وأخذ وجهتهم مع المؤمنين، ولا يتحقق ذلك إلا بالطاعة الكاملة لله ورسوله (ﷺ) فإن فعلوا رشدوا وإن تولوا فإنما على الرسول ما حمل من أمانة التبليغ وقد أداها، وعليهم ماحملوا من عدم الاستجابة وقد خلعوها من رقابهم، وفيه تأكيد لأمر الطاعة والمبالغة فى إيجاب الامتثال به، والحمل عليه بالترغيب والترهيب، لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد من المتكلم بشأنه، ويستجلب فريد رغبة فيه من السامع – سيما – إذا كان ذلك بتغيير الخطاب، والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه – ﷺ – للمأمور به إليهم، وعدم التصريح للإيذان بغاية مسارعته – ﷺ – لتبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر، ولبيان ذلك آثر البيان القرآنى التعبير بالموصول (ما) فى قوله (ما حمل... ما حملتم...) لما فى إبهامها من تفخيم وتهويل لأمر الحمل وللتأكيد على أن تفصيل المسند إليه وبيانه مما لا تفى به عبارة، ولا يستطيع إدراك كنهه مخلوق، ولعل فى التعبير بالتحميل إشعاراً بثقل الوحى فى ذاته، وثانياً: للإشعار بثقل الأمر عليهم، وهو ما أكده بالمقولين: الأول منهما (قل لا تقسموا..) نهى بطريق الرد والتبكيت، والمقول الثانى (قل أطيعوا...) أمر بطريق التكليف والتشريع، وقيل: لعل التعبير فى جانبهم بقوله (وعليكم ما حملتم..) للإشعار بثقله وكون مؤنه باقية فى عهدتهم بعد، كأنه قيل:

١) التفسير القرآنى للقرآن ١٨/١٣١٢، وروح المعانى ١٨/٢٠٠
٢) سورة النور / ٥٤

وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل، والتعبير بالحمل فى جانبه (ﷺ) للمشاكلة[1].

قال تعالى **(أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**[2] جاءت هذه الآية عقيب الآيات التى تحث المسلمين على الامتثال والاستجابة لأمر الرسول – ﷺ – من غير مهل أو تردد، لتؤكد على ملكية واختصاص الله – سبحانه – لهذا الوجود، الذى أوجده، وأقامه على سنن، وأخذه بنظام حكيم، لا يتخلف عنه أبداً، والإنسان وهو بعض مالله... فهو جزء من هذا الوجود، وهذه الأحكام والشرائع التى سنها الله – تعالى للإنسان، وبين له فيها الطريق الذى يسلكه، والطريق الذى يجتنبه – هى من سنن هذا الوجود، الواقع تحت سيطرة الله وملكه، وأن أى خروج عن هذه الأحكام والطرق السديدة، هو انحراف عن الجادة، وباباً أصيلاً يعرض الإنسان للعزلة عن هذا الوجود كله، بل ويعرضه لشقاء الدنيا والآخرة، ولما كان الامر كذلك، آثر البيان القرآنى التعبير بالموصول (ما) فى عموم هذه الآية كلها على مدار ثلاث مرات، تقريراً لهذا الغرض، فضلا عن التفخيم والتهويل المرادين مع العموم والشمول لكل الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً وتصرفاً وإيجاداً وعدماً، بدءاً وإعادة، لا لأحد غيره شركة أو استقلالاً، أما قوله (قد يعلم ما أنتم عليه..)[3] فهو بمثابة تحذير للمخالفين، الخارجين عن السنن الإلهية،االمتمردين على أوامره، وهو ماأكده البيان القرآنى فى التعبير بالموصول (ما) لإفادة التفخيم والعموم والشمول لهيمنة علمه لكل ماهم عليه من أحوال، والتى من جملتها: الموافقة أو المخالفة، الإخلاص أو النفاق، فعلمه مؤكد وشامل ومحيط لكل ما يخفون أو يعلنون، وما هم عليه من صلاح أو فساد، أما تعليق علمه – سبحانه – بيوم رجوعهم لابرجوعهم ذاته، فهو يخدم الغرض البلاغى المساقة الآية

---

١) روح المعانى ١٨/٢٠٠ بتصرف
٢) سورة النور / ٦٤
٣) سورة النور / ٦٣

لأجله، وهو زيادة تقرير وتحقيق علمه – سبحانه – بذلك وغاية تقريره، لما أن العلم بوقت وقوع الشيئ مستلزم للعلم بوقوع الشيئ، على أبلغ وجه وآكده، وفيه إشعار بأن علمه – جل وعلا – بنفس رجعهم من الظهور بحيث لايحتاج إلى البيان قطعا(١).

أضف إلى هذا التعبير بالموصول (ما) فى قوله (فينبئهم بما عملوا...) والذى يفيد زيادة تقرير الغرض المسوق له الآية وهو عمومية وشمولية إحاطة علمه سبحانه – لكل جليل وحقير، بل كل صغير وكبير من أعمالهم السيئة، التى من جملتها مخالفة أمره – جل وعلا – حيث يرتب عليه ما يليق به من التوبيخ والجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيعرف كل عامل ما عمل، ومالعمله من ثواب أو عقاب، كما يقول سبحانه (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)(٢) ولقوله تعالى (**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**)(٣).

وفى سبيل التأكيد على هذه الأغراض أو ثر اسلوب الالتفات فى نهاية الآية من الغيبة إلى الخطاب (أنتم) ومن الخطاب إلى الغيبة فى (يرجعون) فهو تقييد لجعل قد: للتحقيق وليست للتقليل – هنا – كما جاء فى الآية السابقة (قد يعلم الله الذين يتسللون)(٤)، وقوله (قد يعلم الله المعوقين منكم.....)(٥). عن طريق الإيماء والإشارة، بتوجيه الحديث – الذى هو شأن المكذبين – إلى غيرهم، من المؤمنين، الذين يوقنون بمجئ يوم القيامة، حيث يلقى فيه كل عامل جزاء عمله، وكأن المكذبين المخالفين لهذا، غير مؤهلين للخطاب الأخروى وما يتعلق به، بسبب ظواهر أعمالهم المخالفة، وأنه إذا كان ثمة حديث إليهم، فليوجه إلى غيرهم، ممن هم أهل للسماع والتعقل، وأنه إذا كان لهؤلاء المكذبين المخالفين

---

١) روح المعانى ١٨/٢٢٨، والجامع لأحكام القرآن ١٢/٣٢١

٢) سورة الزلزلة / ٦-٨

٣) سورة الإسراء / ١٣-١٤

٤) سورة النور /٦٣

٥) سورة الأحزاب / ١٨

بهذا الحديث، عودة إلى أنفسهم، وتدبر لحقيقة ماهم عليه من المخالفة وعدم الانصياع، فليأخذوه من أهله، لهذا جاء الالتفات معبراً عن حقيقة إعراضهم، وأن علم الله محيط بهم وبكل ما يقع تحت طائلة سيطرته وملكه سبحانه – وأن تدفعهم تلك الحقيقة إلى العودة والأوبة .... فاللهم ارزقنا العودة إلى دينك عوداً حميداً........

خاتمة البحث

بعد هذه التطوافة السريعة فى كتاب الله – ﷻ – وبين أفياء مراجع البلاغة والتفسير، توصلنا – بفضل الله ومنته – لعديد من النتائج والتى منها على سبيل المثال، لا الحصر:-

أولا: عند الحديث عن المواقف الجماعية، التى تحتاج لمعاونة أفراد إثر القيام بها، آثر البيان القرآنى التعبير بالاسم الموصول (الذين) والخاص بجماعة العقلاء من الذكور – على الأغلب فى استعماله – باعتبار أن النساء تبع لهم فى توجيه أى خطاب، فقضية الإفك – مثلاً – وما يتعلق بها من أحداث لم يحاكها فرد بعينه، بل اشتركت فيها شخصيات عديدة، لذا ناسبها التعبير بالموصول الجماعى، قضية أخرى كحب إشاعة الفاحشة بصورها العديدة، ومفاتنها غير المحصورة، لا يساندها شخص واحد، وهو ما أكده البيان القرآنى فى إيثاره للفظ (تشيع) والشيوع – عادة بصوره المختلفة يتطلب اتحاد واتفاق مسبق على ماهية هذا الشئ المراد شيوعه. أضف إلى هذا: مجموع قضايا الاستئذان عند الدخول، وعدم اتباع الشيطان فى أهوائه وخطواته، والأطفال غير البالغين، وتخفيف النساء من بعض ثيابهن فى حضورهم، وقضايا الاتباع والمخالفة والتسلل بدون إذن من رسول الله – ﷺ –...إلخ، كلها قضايا جماعية، تتطلب التعيين بالوصف لحال كل منها على حده، نظراً لتكرار حدوثها فى إهاب هذا المجتمع الجديد، وبالتالى تتطلب تسليط الضوء عليها ومعالجتها بغية تربية المخاطبين تربية إسلامية واعية بمتطلبات معايشها، ولا يسهم فى بيانها إلا الموصول.

ثانيا: لاحظنا – بفضل الله – استثمار الموصول الخاص بالمفرد المذكر (الذى) فى رحاب سورة النور بقلة – سيما – عند التعرض للحديث عن بعض الأمور التى يوهم ظاهرها التريث وعدم التسرع قبل الخوض فيها أو فعلها، وأذكر منها: تخصيص الكبر فى حادث الإفك بشخص معين لدى المخاطبين فى (والذى تولى كبره...) أضف إلى هذا: قضايا: إعطاء راغبى الزواج ومساعدة

المحتاجين منهم ممن وقفت ظروف الحياة ومتطلباتها عائقا فى طريقهم، والتمكين فى الأرض والاستخلاف للمؤمنين حسب وعد الله،... إلخ. كلها قضايا تستلزم فى الأولى منها: الوقوف مع العقل وتحكيمه قبل الخوض فى الحديث عن عرض امرأة، هى أطهر من عرفهن التاريخ على مر الدهور، كما يتطلب فى الثانية منها: التفكير والتريث فى طبيعة المال وتوابعه، ومعرفة أننا مستخلفون فيه، ومسئولون عنه، (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم....)، كما تستلزم فى الأخيرة منها: تحكيم العقول، وعدم ترك الأنفس وحدها فى منازعة الأهواء والرغبات والشهوات. ولا يستطيع توصيف تلك الأحداث بدقة سوى الموصول (الذى).

ثالثا: أما اسم الموصول (اللاتى) فلم يستثمر على مدار سورة النور سوى مرة واحدة فى إطار قوله تعالى (والقواعد من النساء اللاتى)، وهو الخاص بجماعة العقلاء من النسوة، باعتبار تعلقه بقضية من القضايا الخاصة بهن، والتى هى مظنة حسن استثمار عقولهن فى أمر يتعلق بطبيعة الثياب والتخفف من بعضه، ورفع الحرج عنهن، ما دمن قد أمن الفتنة، فى حضرة المحارم لهن، ولا يوفق لبيان هذه المهمة الصعبة إلا اسم الموصول الخاص بجماعة الإناث، فكان استثماره خير استثمار.

رابعا: أما الموصول الحرفى والمشترك فى التعبير به عن العقلاء، وغيرهم – على الأغلب – فقد استثمره البيان القرآنى بكثرة – أيما استثمار – ما دامت هذه السورة هدفها الرئيس هو: توعية المسلم بواجباته تجاه أفراد مجتمعه، فى أخلاقياته وسلوكياته وعباداته، وهو ما يظهر واضحاً فى هذه القضايا: كا كتساب الإثم بقصد أو عن غير قصد، واكتساب الإفاضة فى حديث الإفك بدون تريث، ومؤاخذة الله للناس على ما صنعته أيديهم، وعلم الله الكائن لأحوال الناس المتباينة: البادى منها والمكتوم، هداية الله ومستلزماتها...إلخ، وكلها أمور تقع أمامنا عن عمد من فاعليها، أو عن غير قصد،... فهى فى النهاية عامة بنسب مختلفة فى العديد من الناس، ولا يناسبها عند توضيحها سوى الموصول الحرفى المشترك (ما).

خامسا: استثمر الموصول العام المشترك (من) عند التصدى للحديث عن القضايا العامة المشتركة، الموسومة بالعقلاء وغيرهم، وهى كثيرة فى إهاب آيات تلك السورة كقضية: التزكية والهداية من الله لبعض الناس دون غيرهم، فهى من القضايا المشتركة العامة، والتى تتعلق – بدءاً ونهاية – بإرادة الله ومشيئته، فالله – وحده – صاحب القدرة فى تسليط نور هدايته على الناس، أو حرمانهم من أثرها. أما قضية الطاعة، وعدم الانصياع لهذا الدين، فمن القضايا العامة والمشتركة، والتى تتطلب مزيداً من بيان طبيعة المتعلق بهم الخطاب، وليس هناك أجدر على ممارسة هذه الطبيعة البيانية من الموصول المشترك (من)... فما أعظمها من بلاغة ؟!!

ثبت المراجع والمصادر

١) **القرآن الكريم.**
٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبى السعود) للإمام محمد بن محمد المعارى – دار إحياء التراث العربى – بيروت.
٣) الإسلام ومشكلات العصر – للأستاذ / سيد قطب – طبعة دار الشروق الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
٤) الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى– المطبعة النموذجية بمصر – مكتبة الآداب.
٥) البحر المحيط لأبى حيان – الطبعة الأولى – مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨هـ.
٦) تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى – ط / مؤسسة الرسالة – بدون تاريخ.
٧) تفسير القاسمى، المسمى محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمى – دار الفكر.
٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير – طبعة / دار الغد العربى.
٩) التفسير القرآنى للقرآن – عبد الكريم الخطيب – ط – دار الفكر العربى.
١٠) جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير الطبرى) للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى – دار المعرفة – بيروت ١٤٠٢هـ – ١٩٨٣م.
١١) خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى – نشر مكتبة وهبة – ط/٢/١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
١٢) خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية – د/ عبد العظيم المطعنى – مكتبة وهبة.
١٣) دلائل الإعجاز للجرجانى ت أ. محمود شاكر – مطبعة المدنى.
١٤) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى – دار التراث بالقاهرة.
١٥) شرح الفوائد الغياثية. أحمد مصطفى طاشا كبرى زادة – دار الطباعة – تركيا ١٣١٢ هـ.

١٦) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى. ت حسام الدين القدسى – ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

١٧) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ط دار الشروق – ط العاشرة / ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

١٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمحشرى – طبعة الحلبى ١٣٩٢هـ – القاهرة – ومعه حاشية السيد الشريف.

الفهرس

الموضـــــــــــــــوع الصفحة

١) مقدمة البحث ٣٠٥
٢) التمهيد: بين يدى سورة النور ٣٠٧
٣) المبحث الثانى : الدراسـة التطبيقية ٣١٠
المبحث الثالث : الموصـــولات المشــتركة ٣٥٤
٥) خاتمة البحث ٣٧٥
٦) ثبت المراجع والمصادر ٣٧٨
٧) الفهرس ٣٨٠